كتاب الهلال
جحا
الضاحك المضحك
بقلم
عباس محمود العقاد
العدد
٦٥
سلسلة شهرية
تصدر عن دار الهلال
قروش
٨

كتاب الهلال

KITAB AL-HILAL

سلسلة شهرية تصدر عن دار « الهلال »

شركة مساهمة مصرية

رئيس التحرير : طاهر الطناحى

العدد ٦٥ ــ ذو الحجة ١٣٧٥ ــ أغسطس ١٩٥٦

No. 65 — August 1956

مركز الادارة

دار الهلال ١٦ شارع محمد عز العرب

(المبتديان سابقا) القاهرة

المكاتبات

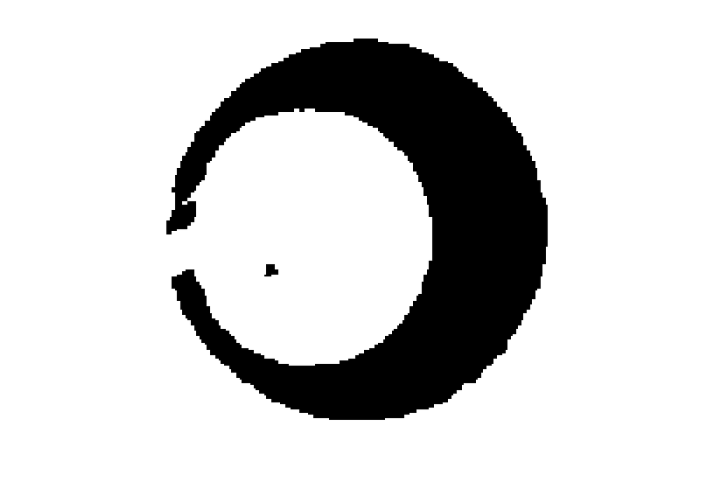
كتاب الهلال ــ بوستة مصر العمومية ــ مصر

التليفون : ٢٠٦١٠ (عشرة خطوط)

الاشـــتراكات

قيمة الاشتراك السنوى (١٢ عددا) ــ مصر والسودان ٨٥ قرشا صاغا ــ سوريا ولبنان ١٠٧٥ قرشا سوريا أو لبنانيا ــ الحجاز والعراق والأردن وليبيا ١١٠ قروش صـــاغ ــ فى الامريكتـــين ٥ دولارات ــ فى ســائر أنحـــاء العـــالم ١٥٠ قرشا صاغا أو ٣٠/٩ شلنـــا

كتاب الهلال



سلسلة شهرية لنشر الثقافة بين الجميع

جحا

الضاحك المضحك

بقلم

عباس محمود العقاد

دار الهلال



جحـا

تمهيد

الكلمة والضحكة

الكلمة أكبر الفتوح الانسانية فى عالم الكشف والاختراع ، لو لم يخترعها الانسان لوجب أن يخترع ما يساويها وينوب عنها ، لانه لا حياة له بغير التفاهم بينه وبين أبناء نوعه ، ولا تفاهم على شىء من الاشياء بغير الـــكلمة او ما يدل دلالتها

أنقول على شىء من الاشياء وكفى ؟

كلا . بل نعمم القول على الاشياء وماليس بشىء من الاشياء ، ونضرب بالمثل بيوم الاربعاء أو يوم الخميس او يوم من الايام فى الشهر الاول من السنة الحاضرة

ما هو ذلك اليوم ؟ وما هو ذلك الشهر ؟ وما هى تلك السنة ؟

يصعب علينا أن نسميها شيئا من الاشياء يتأتى لنا أن نشير اليه كما نشير الى كل شىء نراه أو نحصره :

مسافة من الفلك تدور فيها الارض حول نفسها ، وليست هى بالمسافة الثابتة التى تعود الى مكانها فى مجرى المنظومة الشمسية من أجواز الفضاء !

شيء أو لا شيء ..

ولكنه على ذلك اسم لابد منه لمن يذكر التاريخ ، ولمن يعمل فى ساعته الحاضرة ، ولمن ينظر الى المستقبل ويقرر له المواعيد والمواقيت

والاسم فى اللغة هو الذى استطاع ان يصطاد للعقل هذه المسافة المجهولة من الفضاء الابدى ويعطيها الدلالة التى لا غنى عنها

ولكنها ليست بالدلالة الوحيدة التى لا غنى عنها

كل ما تدل عليه اللغة لا غنى عنه للانسان ، ومنه هذه المحسوسات التى نلمسها ونراها بالعين ، كالطريق والمركبة والكرسى والاناء . فاننا نجرب الاستغناء عن اللغة يوما ونحاول أن نتفاهم عليها وهى غائبة عنها لا نستطيع أن نشير اليها

لاسبيل !

وصدق القرآن الكريم : كل علم هو علم الاسماء ، والله علم آدم الاسماء كلها ، لانها هى العلم الانسانى من مبدئه الى منتهاه

الا انه علم الانسان

وكل علم للانسان يعرض له النقص من بعض نواحيه ، فاذا قال لنفسه : لابد لى من اللغة ! فلا ينس أن يقول لنفسه : نعم . وحذار من هذه اللغة ، فان النفع منها للعقل عظيم جد عظيم ، ولكن الضرر منها غير قليل وغير مأمون

من منافعها انها تحصر المارد المنطلق فتحبسه فى القمقم المرصود مطيعا حيث يراد

ومن أضرارها أنها تحبس المردة الكثيرة فى قمقم واحد ، فتنطلق مرة واحدة حيث يراد واحد منها ، وتنحبس مرة واحدة حيث نريد أن نطلق منها هذا وندع منها ذاك

عودتنا اللغة أن نحسب كلّ اسم علما على شيء واحد ، وكثيرا ما يكون هذا الاسم كالقمقم الذى يحتوى فيه عشرات المردة بعلامة واحدة ، وما من شبه بينها غير تلك العلامة لضرورة التمييز والتقسيم

تعودنا أن نسأل : ما العلم ؟ ما الفهم ؟ ما الحس ؟ ما الضمير ؟

وتعودنا أن نسأل : كيف نعلم ؟ وماوسيلة الفهم ؟ ولماذا نحس ؟ ومابالنا نصغى للضمير ؟

تعودنا ذلك ، وتعودنا أن نجيب بجواب واحد ، كأننا نسأل فى جميع هذه الاحوال عن شيء واحد

وما نسأل فى الحقيقة الا عن أشياء كثيرة تنبيء عنها كلمة واحدة

ما نسأل فى الحقيقة الا عن عشرين ماردا أو أكثر من عشرين ، يجمعهم القمقم الواحد الذى نشير اليه

وفى سياق هذه الرسالة ـ رسالتنا عن حكمة جحا امير المضحكين ـ نسأل كما تعودنا من كل كلمة : ما الضحك ؟ ولماذا نضحك ؟

وما الضحك بشيء واحد ..

وما نضحك لسبب واحد ..

وما نفكر فى الضحك على نحو واحد ..

ولكنها الكلمة التى لا غنى عنها ، ولا أمان منها كذلك مالم نعرف سر الرصد المسحور !

وهانحن أولاء فى هذه الرسالة نعرف سر هذا الرصد فى كلمة واحدة ـ كلمة الضحك ـ لنعرف منها أمير المضحكين بين المضحكين ، ونعرف منها أضاحيكه بين أشتات المضحكات

الضحك ضحوك عدة اذا صح هذا التعبير ، وليس بضحك واحد

ونحن نضحك لاسباب كثيرة ، ولسنا نضحك لسبب فرد لا يتعدد ، ويوشك أن يكون لكل حالة من حالات ضحكتها التى تصدر عنها ولا تطرد عن حالة غيرها ، كأنما هى لغة كاملة على أسلوبها فى التعبير

هناك ضحك السرور والرضى ، وهناك ضحك السخرية والازدراء ، وهناك ضحك المزاح والطرب ، وهناك ضحك العجب والاعجاب ، وهناك ضحك العطف والمودة ، وهناك ضحك الشماتة والعداوة ، وهناك ضحك المفاجأة والدهشة ، وهناك ضحك المقرور وضحك المشنوج وضحك السذاجة وضحك البلاهة ، وما يختاره الضاحك ومايبعث منه على غير اضطرار

بل ربما كان لكل مضحكة من هذه المضحكات الوان لا تتشابه فى جميع الاحوال

فالضاحك المسرور قد يكون سروره زهوا بنفسه واحتقارا لغيره ، وقد يكون سروره فرحا بغيره ، لازهو فيه بالنفس ولا احتقار للآخرين

والضاحك الساخر قد يضحك من عيوب الناس لانه

يبحث عن تلك العيوب ويستريح اليها ولا يتمنى خلاص
احد منها ، وقد يضحك من تلك العيوب لانه ينفس عن عاطفة
لايستريح اليها عامة بين اخوانه الآدميين ، ولا خاصة فى
أحد يعنيه من أولئك الاخوان

والضاحك من عيوب السخف والحماقة قد يضحك من
السخيف الاحمق أو يضحك من الذى يحكيه فى سخافته
وحمقه فيعرف كيف يحكيه ، وكلاهما باعث من بواعث
الضحك مخالف لغيره فى أثره وداعيه ومعناه

□

هذه المسألة وضعت موضع التجربة العلمية بعد انتشار
الصحافة ، وتنوع موضوعاتها ، واختصاص طائفة منها
بموضوع الفكاهيات والمضحكات ، وتنافس الكتاب فى ابتداع
فن جديد من أساليب الفكاهة والضحك ، كلما ألف القراء
أسلوبا منها وسئموه أو اشتاقوا الى غيره. فظهرت الفوارق
بين النكات التى تدعو الى الضحك، وتمايزت بأسمائها وعلاماتها،
وأوشك الكتاب الفكاهيون أن يتمايزوا بالتفوق فى كل باب
من هذه الابواب ، واستطاعوا أن يفرقوا بينها بالتعريفات
أو بالحدود المفهومة

ولعلنا نطالب هؤلاء الكتاب بما ليس عندهم اذا سألناهم
أن يرجعوا بهذه الفكاهات المختلفة الى مصادرها من الطبيعة
البشرية والعلل الفلسفية ولكننا نستطيع أن نعتمد على
تجربتهم فى التنويع والافتنان ، لانه عمل يزاولونه كل يوم،
ويعرفون خطوات الانتقال فيه من فن الى فن ، ومن
أسلوب الى أسلوب ، ولو لم يكن هذا الاختلاف فى الاساليب
الا اختلافا فى التعبير والتنميق

ومن أمثلة الاجتهاد فى التفرقة بين موضوعات الضحك والفكاهة كتاب مزاج الفكاهة The Humour of Humour لمؤلفه ايفان ايسار Evan Esar الذى اشتغل زمنا بكتابة الفكاهيات وتقسيمها وترتيب أقسامها ، وأرادبكتابه هذا من عنوانه الىخاتمته أن يكون تطبيقالآرائه واختباراته، لان العنوان نفسه يشتمل لعبا بالالفاظ كاللعب الذى يدخل فى النكات الجناسية ، لان كلمة « هيومر » بالانجليزية تأتى بمعنى المزاج وتأتى بمعنى الفكاهة وتدل على اخلاط الجسم فى مذهب الاقدمين كما تدل على وسائل تعديل هذه الاخلاط بالدواء أو بتطييب الخواطر وتنزيه النفوس

ولا تحصى أفانين الضحك والفكاهة كما شرحها المؤلف فى كتابه ، ولكننا نشير الى بعضها على سبيل التمثيل ، وندع للقارىء أن يقيس عليها من تجاربه مايشاء

فمنهذه الافانين « الملاحظة المزدوجة أو الملاحظةاللاذعة» ومثالها كلمة تقال عن الزواج من أجل المال : « انه يصلح أبا لها بسنه ، وزوجا لها بثروته »

أو كلمة تقال عن البخيل : « أنه يضع نقوده فى الحشية فهى : « محدثة لطيفة .. استطعت أن أفلت منها » .. أو كلمة تقال عن البخيل : « انه يضع نقوده فى الحشية ليجد تحته شيئا يستند اليه »

ومن هذه الافانين « الآبدة » أو العبارة الشاردة ، والفرق بينها وبين الملاحظات السابقة أنها اقرب الى المثل السائر الذى يسهل تعميمه ولا يخص أحدا بعينه . وأما الملاحظات السابقة فأكثرها يقال عن الاشخاص أفرادا بغير تعميم ، ويدور على شئونهم ولا يدور على المواقف والاطوار

ومن أمثلة النكتة الآبدة أو العبارة الشاردة أن الاخلاق طلاء تمسحه الخمر ، وان السن تخون أصحابها لانها تدل على السنين ، وأن الحكيم حين تقنعه حكمته بأن يتزوج يصبح الاحمق زوجا وله أبناء ، وأن لابس النظارة «منظره بغيرها أحسن ونظره بغيرها اقبح ! » وأن الامريكيين أحرار لانهم « يأخذون » حريات كثيرة !

ومنها اللغز ، وعماده على المغالطة ، أو على جمع المتشابهات التى تختلف فى الحقيقة أبعد اختلاف

ومثاله أن يسأل السائل : « لماذا وضعوا واشنطون على تل ؟ » فيجيب المجيب : « لانه مات » !

أو يسأل السائل : « ماذلك الشيء الذى يصنعه الرجل واقفا وتصنعه المرأة جالسة ويصنعه الكلب على ثلاث ؟ »

والجواب : « المصافحة أو تحية السلام عند اللقاء »

ومن أفانين الفكاهة الجناس اللفظى ، وهو يشبه اللغز فى السؤال والتورية

يسأل السائل : « ماوجه الشبه بين الفلاسفة والمرايا ؟ »

والجواب : « التأمل والنظر » !

أو يسأل السائل : « ما وجه الشبه بين الكتاب والشجرة ؟ »

والجواب : « كلاهما له ورق ! »

أو يسأل السائل : « ترى هل يحاسب الرجل على قتل الوقت اذا حطم الساعة ؟ »

والجواب : « كلا ! اذا ضربت الساعة أولا »

ومن هذه الافانين المساجلة والمحاورة ، وقد يكون السائل فيها هو المجيب

تقول لى : « لماذا تشرب الخمر ؟.. قل لى ماذا تقترح أن أصنع بها ؟ »

وتسألنى : « اى الدجاج أطول رقادا ؟ كيف؟ ألاتعلم ؟.. الذى مات ! »

ومنها الظن المختلف وهو يتوقف على الموقف ، وتعدد المشتركين فيه ، ووجود اللبس الذى يدعو الى اختلاف الظنون ، ومثاله قصة عن اربعة فى مقصورة قطار : فتاة حسناء ، وامرأة عجوز ، وكهل فرنسى ، وضابط ألمانى أثناء احتلال الالمان باريس. ودخل القطارنفقا فسمع فىالمقصورة صوت قبلة وصفعة ، ثم خرج القطار من النفق وهم صامتون وعلى وجه الضابط الالمانى أثر صفعة . فقالت المرأةَ العجوز لنفسها : « ما اطهرها من فتاة » ! وقالت الفتاة الحسناء لنفسها : « عجبا له . يقبل العجوز ولا يقبلنى ؟ » . وقال الضابط الالمانى : « ياله من فرنسى خبيث . غنم القبلة ، وغنمت أنا الصفعة ! » وقال الفرنسى : « لقد نجوت بها . قبلت ظاهر كفى وصفعت الالمانى ، ولم يتهمنى أحد » !

ومنها النادرة ، وهى نكتة لابد لها من قصة تتعلق بصناعة أصحابها أو بعملهم وقواعده المتعارف عليها : كان مارك توين ـ الكاتب الفكاهى المشهور ـ يعمل فى احدى الصحف ، وتكاد الديون تستغرق مرتبه ، وكان من عادته أن يهمل كل انذار يأتيه من صاحب دين . واتفق يوما أن كاتبا من مساعديه كان الى جانبه ، وهو يهم بأن يلقىبعض هذه النذر فى سلة المهملات . فنبهه الكاتب قائلا : «انتظر ياسيدى . فان فى ظهر الورقة كلاما يقول فيه صاحبالدين

انه سيقاضيك ان لم تسرع الى السداد » . فقال له مارك توين كأنه ماض فى عمله : « ألا تعلم يا صاح أن الورقة التى تكتب على وجهين تهمل فى هذا المكان ؟! »

ومنها الكلمة التى تقال وتفهم على معنيين ، أحدهما يسر والآخر يزعج أو يخيف ، وتشبهها كلمات الجناس كلما دلت على نقيضين

يقول الرجل لزميله فى بلاد النيام نيام أكلة البشر : «ان الزعيم يريدك للغداء »

أو يقول فرنكلين وهم يكتبون وثيقة الاستقلال : « يجب ان يتعلق بعضنا ببعض والا تعلقنا على انفراد »

أو يقول الشيطان : « الفضيلة فى الوسط » ، وهو يجلس بين رجلين من رجال السياسة !

أو يقول قدح الماء للبرشامة : « تقدمى وانا بعدك » .. وفيها مثل لظاهر التحية وباطن الاشتراك فى البلاء !

أو تقول الفتاة لمن يغازلها : « أنا كالقاطرة .. ان لمستنى صرخت » !

□

ومما أحصاه الفكاهيون المعاصرون من أساليب التعبير الفكاهى أسلوب القلب والعكس ، ومن أمثلته : « ان الحب يذهب بالزمن وان الزمن يذهب بالحب » ومنها : « أن بعضهم يحب أن يشاهد الصور المتحركة ، وبعضهم يشاهد الصور المتحركة ليحب » ومنها : « ان الانسان يخلق المتاعب وأن المتاعب تخلق الانسان » ومنها : « أن من يتعمق الى أساس الامور ترفعه الامور الى الذروة العليا » ومنها : « ليس الضحك بداية سيئة للصداقة ولكنه نهاية حسنة »

وتكرار الكلمة فى مواضعها فن من فنون الفكاهة ، كتكرار ذكر الذكاء فى هذه العبارة :

« الفتاة الذكية أذكى مما يبدو عليها لان الفتاة الذكية لا تبدى ذكاءها »

أو هذه العبارة : « غير المتوقع يقع أحيانا حين لاتتوقع من المرء ماهو خليق أن يقع منه »

أو هذه العبارة : « علينا ان ننسى أنفسنا لنشعربالسعادة ولكننا لا نسعد اذا نسينا أن ننسى أنفسنا »

والنسيان المعهود فى العلماء والمعلمين يضحك أو يحسب من أسباب الفكاهة ، وتروى لذلك قصص كثيرة هذه أمثلة منها :

« جلس أستاذ فى مكتبه بالمنزل وهو فى قلق شديد على زوجته التى ادركها المخاض ، واذا بقريبة له تقتحم المكتب لتبشره بولادتها وتصيح به : « انه ولد » .. ويكون قد ذهل عما حوله فيسألها : « وماذا يريد ؟ » ! »

وذهب أستاذ الى طبيب فقال له : « اخرج لسانك » ثم قال له : « لسانك فى حالة حسنة ولكن ما هذا الطابع الذى عليه ؟ » .. فابتسم الاستاذ وقال : « أهو هناك وانا احسبنى وضعته على الغلاف ! »

واكذوبة ابريل وما جرى مجراها فن من هذه الفنون الفكاهية ، يقول مارك توين : « ان أول ابريل يوم واحد فى السنة يذكرنا بغفلتنا فى جميع الايام »

ويقول المتندرون بهذا اليوم ، ان الذين يولدون فيه يكتمون تاريخ ميلادهم ليثبتوا وجودهم ويستريحوا من ولع الناس بتذكيرهم ما يحاولون كتمانه ، وكذلك من يولد

فى اليوم التالى أو اليوم السابق .. ولكنهم يطلقون اسم مغفل ابريل على كل ضحية تجوز عليه الاكاذيب فى يوم مجعول لهذه الاكاذيب

والعثرة اللسانية أو القلمية تضحك وتهيىء النفس للفكاهة ، ومن قبيلها قول بعض الخطباء على اثر حفلة موسيقية من الحفلات التى لاتكثر فى القرى : « انها لحسن الحظ حفلة نادرة » .. ويشبه هذه العثرة أن طبيبا كتب شهادة وفاة فوضع اسمه فى موضع سبب الوفاة .. بدلا من موضع التوقيع !

والغلطة مع حسن النية تثير الغيظ فيمن يصاب بها وتثير الضحك فيمن يشاهدها ، واحدى النوادر المروية عن هذه الغلطات أن صاحب حانة كان يقف وراء البنك فى حانته اذ هجم عليه قادم مستعجل وسأله فى لهفة : « أعندك شىء يزيل الفواق ؟ » فلم يجبه صاحب الحانة ولكنه ضربه بالفوطة المبلولة على وجهه ، فنظر الرجل اليه شزرا وهم أن يبطش به لولا أن بادره صاحب الحانة معتذرا ، وقال له اننى أرحتك بهذه الضربة من الفواق .. ثم ظهر ان الرجل لم يكن به فواق وانما طلب الشراب الذى يزيله لزوجته التى كانت فى السيارة عند الباب !

وقد يتبع الغلطة حسن التخلص فتضيف اليها فكاهة على فكاهة :

اخذ بعض المدعوين الى احدى الولائم فى حديث مع جارته ، واحب أن يبدأه بالغيبة والنقد لانها من الاحاديث المحبوبة فى أمثال هذه المجتمعات ، فأنحى بالذم والوقيعة فى رجل لا يعرفه على مسافة منهما ، وفاجأته السيدة

قائلة : « ويحك ! انك تعنى زوجى ! »
قال : « نعم ! ولهذا أكرهه ! »

وأراد طبيب مستشفى المجانين ان يتصل برقم يحتاج الى التحدث مع صاحبه على عجل ، فجن جنونه لاهمال العاملة ومراوغتها فى الجواب ، وصاح بها محتدما : «ويلك! أتعلمين من أنا ؟ » قالت : « لا . ولكنى أعلم أين أنت ! »

والغلطة المطبعية احدى الغلطات الفكاهية او المضحكة ، وهى خاصة بكل لغة قلما تصلح للترجمة الى لغة اخرى ، ولكننا نضرب لها الامثلة بما عرفناه من غلطات المطبعة عندنا واحداها غلطة الصفاف فى نقل السطور بين اعلانات الزواج واعلانات الوفيات ، فاذا بالخبر يقرأ ان العروس تقبل التهنئة من المدعوين ثم شيعوه بالرحمات والدعوات

وحدث فى الاحتفال برفع الستار عن تمثال نهضة مصر أن حكمدار العاصمة وقف على مقربة من كبار الرؤساء وقبعته على رأسه ومنشته فى يده ، فعلقنا على ذلك فى كتابة أخبار الحفلة ، واضطربت السطور بين يدى الصفاف فجرى الخبر على هذا المثال :

« وحضر فلان وفلان وصاحب الفضيلة الاستاذ الاكبر شيخ الجامع الازهر ، ولوحظ عليه أنه كان يلبس قبعته ويعبث بمنشته وهو على مقربة من كبار ولاة الامور »

وكتب بعض المخبرين حديثا مع مستر فريدرك ، فاذا به يسمى مستر فريد بك !

وغلطات المطبعة من هذا القبيل لا تحصى فى جميع اللغات ولكنها تزداد فى اللغة العربية لتشابه بعض الحروف

وحسن التخلص وحده قد يحول الموقف من الغضب

الى الضحك ، ولو عرف السامع أنه ملفق للخلاص من الحرج واللوم

ذهب عريس مع عروسه الى محطة السكة الحديدللسفر الى ضاحية يقضيان فيها شهر العسل ، ثم عاد الىعروسه من شباك التذاكر ومعه تذكرة واحدة ، فصاحت بهمغضبة:

ـ ماهذا يا عزيزى ! تذكرة واحدة ؟

فما كان أسرع منه الى الاعتذار بالكلمة الوحيدة التى تخطر على البال ، ولا يخفى على الزوجة أنها عذر مختلق للخلاص من هذا المأزق الاليم فى مطلع شهر العسل ، قال :

ـ ماهذا ياعزيزتى ؟ لقد أنسيتنى نفسى !

وفوجىء موظف فى مصرف وقد أغمض عينيه وكاد أن يستسلم للنعاس

قال الرئيس : « أنائم فى أول النهار ؟ »

قال الموظف « اليقظ » : « على رسلك ياسيدى الرئيس، ألا أستطيع أن أغمض عينى لحظة للصلاة قبل بدء العمل ؟»

▭

ويذكرون من ضروب الضحك خيبة الحيلة وارتدادها على صاحبها ، أو ظهور الخديعة على من يفرط فى الذكاء فلا يلبث أن يبدو لنفسه ولغيره كأنه مفرط فى الغباء

دخل رجل على طبيب فى « عيادته » فاعتقد الطبيب أن الزائر مريض يطلب العلاج ، وأراد أن يوحى اليه بمقدار أجرته فى غير مساومة ، فعمد الى التليفون وأداره وراح يقول لمحدثه المزعوم : « نعم ! أنا الدكتور جونسون ! اننى مشغول جدا .. تسأل عن القيمة المطلوبة ؟.. انها كما

أخبرتك خمسمائة ريال .. وأنت تذكر هذا ؟ حسن . الى اللقاء اذن ! »

ثم وضع سماعة التليفون والتفت الى الزائر متسائلا : « ماذا أستطيع أن أصنع لك ياسيدى ؟ »

فأجابه الزائر: «لاشيء . اننى موظف مصلحة التليفونات الذى طلبته لاصلاح تليفونك » !

وكان موظفان يعملان فى مكتب واحد ، يفرغ أحدهما من عمله نحو الساعة الرابعة كل يوم ، ويبقى الآخر بعده ساعتين أو أكثر لانجاز عمله . فسأل هذا صاحبه ذات يوم : «كيف تنجز عملك فى هذا الموعد ؟ » قال صاحبه : « اننى لا أنجزه أيها الزميل ، ولكننى كلما صادفت مسألة معضلة كتبت على الورقة : يعرض على مستر سمث . ولابد أن يكون فى هذا المكتب « مستر سمث » واحد على كل حال » !

فخلع صاحبه سترته ونظر اليه متحديا وهو يقول كمن نشط من عقال : « الآن تبقى أنت للساعة السادسة . . أنا مستر سمث الذى تجهله . فاعرفه بعد اليوم » !

ومن أساليب الفكاهة الاقضية التى يسمونها بالاقضية السليمانية :

اتهم رجل بالسرقة ، فأراد المحامى أن يجر القاضى الى شرك يغريه بالوقوع فيه ، وتحذلق فى دفاعه متعمدا فقال : « انكم تعاقبون رجلا كاملا بعمل ذراع واحدة هى التى جذبت السلعة المأخوذة من وراء القضبان »

قال القاضى ، وهو يظن انه أوقع المحامى فى شركه : « حسن ! نحن نحكم على الذراع بالسجن ستة أشهر ، ولينطلق صاحبها حيث يريد »

فخلع المتهم ذراعه المصنوعة وهم بالانصراف !

□

والمفارقة احدى هذه المضحكات ، وعلى نحوها نصيحة الناصح : « لا تقص على الاصلع حكاية يقف لها الشعر . فهو جهد ضائع »

وعلى نحوها تحذير المحذر : « لا تقتل الرجل الذى قبل زوجتك اليوم ، فانك لم تقبلها منذ سنة ! »

ويأتى الضحك من تناقض المعانى الكثيرة فى هذا التحذير

فمنها أن الرجل الذى قبل الزوجة لقى عقوبته التى تساوى القتل

ومنها أنه قام بواجب أهمله الزوج

ومنها انه لازم فى المستقبل

ومنها أشباه ذلك كثير ...

وعلى نحوها : « ان غاية الكسل ان تستيقظ عند الفجر لكى تجد وقتا طويلا للدوران »

والصورة الهزلية ، فى الكلام ، أهم هذه المضحكات ، ومن هذه الصور أن فلانا بلغ من طول وجهه أن الحلاق يتقاضاه أجر الحلاقة ضعفين ، وأن فلانا بلغ من ضخامته أن ظله وقع على رجل فمات ، وأن فلانا بلغ من طوله انه يصعد على كرسى ليغسل أسنانه !

وسرعة الجواب مع المغالطة فيه لون من ألوان الفكاهة وتهيئة النفس للضحك

مصور له أولاد قباح يداعبه ناقد فيعجب له كيف يصنع أولاده بهذا القبح ويصنع صوره بذلك الجمال

والمصور يجيب : « لا عجب ياسيدى . أولادى أصنعهم

فى الظلام وصورى أصنعها فى النور » !

وتقول فتاة لزميلتها : « لقد رفضت الزواج من فلان ، وهو منذ ثلاثة أشهر عاكف على الشراب »

فتقول الزميلة وهى تصطنع الجد فى الجواب : « هـذا الذى نسميه مبالغة فى احياء الافراح » !

وتهزأ سيدة من زميلتها المؤلفة فتسألها : « من الذى الف لك كتابك الاخير ؟ انه بديع »

وجواب المؤلفة من جنس السؤال : « سرنى والله انه أعجبك .. من الذى قرأه لك ؟ »

□

وتعد «المقالب» من بواعث الضحك ، وهى الاكذوبة التى توقع السامع فى بعض الغرم أوبعض التعب ،دون أن يصحبها ضرر اليم . والمبالغة فيها كاختلاق أخبار النعى ، والاعتدال فيها كالدعوة الى وليمة ، ولا وليمة! او تقديم الحلوى وفيها دواء .. غير مطلوب

□

ومن الفكاهة اتباع الحكمة بحكمة أخرى توافق مقدماتها ولا تخطر فى الحسبان ، ومن أمثلتها ان الالفة فى الحب تولد الاحتقار .. والاطفال ، وأن الفتاة التى تشبه الكتاب المقروء توضع مثله على الرف ، وان تفاحة فى اليـوم تبعد عنك الطبيب ، ولكن بصلة فى اليوم مفعولها أكيد .. تبعد عنك كل انسان ، وان اثنين لازمان للشجار ، ولازمان أيضـا للزواج ، وان المال ينطق .. والمال يخرس !

والسخرية احدى هذه الالوان ، ومن السخرية أن يقول

القائل جادا كأنه يعنى ما يقول : « مابال فلان ينتقم منى كل هذا الانتقام ؟ اننى لم أحسن اليه كل هذا الاحسان ؟ »

وذهب فتى الى شباك البريد ، فوجدالموظفتين فى شاغل عنه بحـــديث طويل عن زى فستان السهرة الذى كانت تلبسه احداهما ، فتأنق الفتى فى الوصف والرجاء ، وطلب الى احداهما أن تتفضل باعطائه طابعا قرمزى الوســط وردى الحافة منقوش الاطراف والجوانب ، ومشفولا كله ولا يساوى مع هذا أكثر من ثلاثة مليمات !

والمحاكاة باب من أبواب السخرية ، تتشابه الامثلةعليها ، ويدخل فيها التهكم والمجاراة

خلا أحد المدعوين باحدى المدعوات فى سهـــرة الرقص فقبلها ، واستجابت لقبلته لحظة غير قصيرة ، ثم قالت له بعد ان افترقت شفتاها وشفتاه : « أتعلم انها أول قبــلة رضيت بها فى حياتى ؟ » فقال الفتى كأنه يجاريها : « نعم . لانك على ما يظهر ورثت الشىء الكثير بغير تعليم »

وتحدث بعض الجلساء فى دعوة عامة عن الثروة ووسائل جمعها ، كأنه يوهم السامعين أنه من أصحابها، فأثنتاحدى الجالسات على سرعة فهمه ، لانه يعرف الكثير عن المكاسب مع قلة ما يكسب !

□

والنصائح المطردة ، مع القياس الظاهر ، مع استحالتها بعد التأمل اليسير ، أحد هذه الاقسام التى اصطلحوا على تقسيمها فى الصحافة الفكاهية ، ومن قبيلها هذه النصائح :

قل لا لمن يهمون بالزواج

وقل لا لمن يهمون بالطلاق
وقل لا لمن يهمون بالموت
وقل لا لمن يهمون بالولادة

ويتمشى على أسلوب هذه النصائح الهازلة جواب رجل أصيب بالزكام وأشار عليه صديق بوصفة ناجعة ، فقال له: « نعم . اليوم اعمل بوصفة جونس ، وغدا بوصفة سميث ، وبعد غد بوصفة براون ، فان بقيت منى بقية لوصفتك يوم الاحد فهو دورك ! »

وقد تطرد الوصايا التالية مع هذا النسق من النصيحة :

« لا تطرد الذبابة من جبهة امرأتك بمطرقة !

« لا تقلق اذا علمت أن كل شيء يذهب فى الغسيل ، حتى البدلة !

« لا تنتفخ وانت تعلم أن الصفر أسمن الارقام !

« لا تحمل هم الزبدة. انك تصنعها من حشائش الارض ، متى تيسرت البقرة !

« لا تتردد فى بذل النصيحة ، لا أحد سيسمعها

« لا تعمل بنصيحة ، وأولها هذه » !

▭

وعندهم فكاهة يسمونها فكاهة « قبل وبعد » مدارها على المقابلة بين هذين الطرفين فى مسائل الزواج على الخصوص ، وهذه أمثلة منها :

« قبل الزواج تقبل الفتاة الفتى لتربطه ، وبعد الزواج تربطه لتقبله

« قبل الزواج يأخذ الرجل بيد المراة حبا ، وبعدالزواج يأخذ بيدها دفاعا عن النفس

« قبل الزواج يقول الرجل لابد أن ينفذ أمرى فى منزلى أو أعرف السبب ، وبعد الزواج يعرف السبب !

« قبل الزواج يسعى الرجل الى المرأة ، وبعد الزواج يسعى للمرأة !

« قلما يكون الرجل بالمزايا التى تراها فيه المرأة قبل الزواج ، وقلما يكون بالعيوب التى تراها فيه بعد الزواج

« فى بعض البلاد الشرقية لايرى الزوج امراته قبل الزواج ، وفى البلاد الغربية لا يراها بعده ! »

ويلحق بهزه الزوجيات تهكم المحدثات والمحدثين من بنات « الدقة القديمة » كما يقال فى مصر باللغة « البلدية » .. ومنه أمثال هذه المقارنة :

« البنت من الدقة القديمة تحمر اذا خجلت ، وبنتها العصرية تخجل اذا احمرت !

« والبنت من الدقة القديمة كانت تذهب الى المدينة وتقف عند جماعة الشابات المسيحيات ، أما بنتها العصرية فانها تذهب الى المدينة ولا تقف عند شيء !

«والبنت من الدقة القديمة كانت تشعر بالاهانة اذا عرض عليها الشراب ، وأما بنتها العصرية فتبلع الاهانة

« والبنت من الدقة القديمة كانت لا تجسر على تناول يد فتاها ، ولكن بنتها العصرية لا تجسر على تركها

« والرجل من الدقة القديمة له رأس يصلح للحسابات ، ولكن ابنه العصرى له عين تنظر اليها » !

□

وهم يصطلحون على تسمية انسان مشهور ينسبون اليه الحكمة التى يخترعونها لساعتها ، من قبيل قول الشرقيين

« قال الراوى » عند اسناد الكلام الذى يعلم السامعون انهم مخترعوه

وأشهر هؤلاء الحكماء المختارين للاسناد الصادق والمدعى حكيم الصين كونفشيوس

فمن كلامه المزعوم ، قال كونفشيوس : « الرجل الذى يسوق بيد واحدة يصطدم بالكنيسة »

وهم يعنون بذلك خطر الزواج ، لان الرجل الذى يسوق بيد واحدة يخاصر امرأة معه فى السيارة باليد الاخرى

ومن كلامه المزعوم ، قال كونفشيوس : « الفتاة التى لها مستقبل تحذر الرجل الذى له ماض »

ومن كلامه : « الرجل الذى يغازل المرأة على المصعد ليس فى مستواها ! »

□

ومن الاضاحيك ضرب من المزاح الفارغ الذى يشبه ما يسمى فى الزجل العربى الحديث بالدور المجنون

يسأل السائل محدثه : « ألم أرك فى بلدة بفالو ؟ »

فيجيبه محدثه : « لم أذهب قط الى تلك البلدة »

ويعود السائل فيقول : « ولا أنا ! »

ويجرى الحوار بين اثنين على هذا المنوال :

ـ ماذا تصنع ؟

ـ أبحث عن ورقة ضائعة

ـ أين سقطت منك ؟

ـ فى الشارع الثامن والثلاثين

ـ لكننا فى الشارع الاربعين !

ـ نعم ، أعلم ذلك ، ولكن هنا نور !

والحكمة التى « يفلت » منها درسها محسوبة فى هذه الاضاحيك :

تقص المدرسة على الاطفال قصة الحمل الذى لم يسمع كلام أمه فأكله الذئب ، فيقول احد الاطفال فى براءة أو فى خبث : « والحمل الذى سمع كلامها أكلناه نحن » !

او يقول المدرس لتلاميذه الصغار : « ان العصفور المبكر يلتقط الدودة »

فيقول أحدهم : « والدودة المبكرة يلتقطها العصفور » !

ومن المفيد أن نلاحظ هنا أن هذه « التقسيمات » لاتبدو غريبة للقارىء العربى الذى ألم بعلوم البيان والمعانى والبديع، لان الكثير منها مقرر بتعريفاته وأمثلته وشواهده فى تلك العلوم ، ومامن قارىء عربى ألم بعلوم البلاغة بعض الالمام الا وهو يعرف التورية والمقابلة والمشاكلة ، والهزل الذى يراد به الجد ، وتأكيد المدح بما يشبه الذم ، وتجاهل العارف ، والاضمار فى مقام الاظهار ، واخراج الكلام على خلاف مقتضى الظاهر ، والتشبيه الملفوف والمفروق ، والفصل والوصل ، والقلب والالتفات والتغليب ، والكناية والتحريف والتصحيف

كل هذا مألوف للقارىء العربى من بلاغة لغته ، كمايألف من كتب الصناعة اللغوية جميعا محكم القول فى جوامع الكلم والفرائد والاوابد والمثل السائر واللحن الذى يحسب من الالغاز والالغاز التى تحسب من ضروب الرمز او الايهام والتعمية

الا اننا لم نشأ أن نطلق هذه التقسيمات والتعريفات على ضروب الفكاهة المصطلح عليها بين المشتغلين بالكتابة

الصحفية وماليها، لان مصطلحات الصناعة اللغوية وضعت فى لغة العرب لتمييز درجات البلاغة ومعانيها ، ولم توضع هذه المصطلحات الحديثة عند الغربيين لشىء من ذلك وانما وضعت للتفرقة بين موضوع وموضوع من مادة الصحافة الفكاهية

وأمر آخر يباعد بين هذه المصطلحات الحديثة وبين مصطلحات علوم البلاغة العربية . وذلك أن المصطلحات الحديثة لفنون الاضاحيك لم تزل على فجاجتها الاولى ولم تبلغ بعد من الدقة فى الاسماء والتعريفات والشواهد مبلغ نظائرها فى علوم البديع والمعانى والبيان ، وقد يختلط بعضها لاتفاقه فى مصدر الشعور واثره فلا يتم التعريف بينها الا بحكم العادة بين المشتغلين بعمل واحد يعرفون مواده واجزاءه بالاشارة والنظرة العابرة ولا يلزم أن يقيموا الحدود بينها بالفواصل المنطقية او النفسانية

على أن الاختلاف بين عناوين الفكاهات ـ ولو بحكم العادة ـ جدير أن نتوقف عنده وننتظر مايليه من التعريفات والتقسيمات التى ترجع الى اختلاف فى أصول الموضوعات أو اختلاف فى طبيعة الشعور . وسوف يأتى الوقت الذى نميز فيه بين ضحكة وضحكة كما نميز بين كلمة وكلمة ، ونعنى بذلك تمييز الفهم والتفسير ولا نقصر الامر على تمييز الشعور والتلبية النفسانية ، فاننا الآن نميز بشعورنا بين ضحكات مختلفات كما كان آباؤنا وأجدادنا يميزون بينها بتبادل الشعور والتلبية بين نفس ونفس ، وليس هذا مايعنيه طلاب التمييز بين أفانين الفكاهات والمضحكات فى الدراسات العصرية ، سواء قصدوا من هذا التمييز تيسير العمل

بين المشتركين فيه كما يتيسر للعاملين فى حانوت واحد أن يميزوا أنواعه بحرف مرقوم على الرف أو علامة منقوشة على الصندوق ، أو قصدوا من هذا التمييز أن ينفذوا الى ينابيع الشعور المتعمقة فى النفس البشرية ، حيث تصدر المضحكات والمبكيات وتكمن أسباب الفرائب والمألوفات ، وما ينبغى لنا أن نزعم أننا نفهم نفوسنا حق فهمها ونحن نجهل الفرق بين ما يضحكها وما يبكيها وما يقع منها موقع الالفة أو موقع الغرابة فى أعمق الاعماق

وربما كان أسم « الضحك » مغريا بالاستخفاف منافيا للجد فى بواعثه ومعانيه

ولكن البحث عن أسباب الضحك جد كأصدق الجدالذى يعرفنا بنفوسنا كمايعرفنا بهاأعظم العظائم وأفدحالمحزنات. بل ربما كان الامر « المحزن » يسير التعليل لاننا لا نحار فيه ولا يخفى علينا أنه يرجع الى حب السلامة وكراهة الضرر والاصابة ، وربما كان لنا نحن الآدميين شركاء فى الشعور بالمحزنات بين الحيوانات العليا وبعض الحيوانات الدنيا ، لان الحزن عندها بمثابة رد الفعل الجسدانى لكل الم وكل مكروه . أما الضحك فليس من سهولة التفسير بهذه المنزلة، ولاسيما الضحك الذى يتشعبويتفرعوتتباعد مصادره من النفس أو تتقارب ــ مع التفرقة بينها فىالاسماء ــ حتى يلتبس موضوع منها بموضوع وعنوان بعنوان

هذه عوارض نفسية يختص بها الانسان ولا يشاركه فيها حيوان من الحيوانات السفلى او العليا ، بل يعتقد الكثيرون من علماء الاجناس البشرية أن القبائل البدائية من الناس لا تضحك ولا تدرك الضحك ، وان هذه الظاهرة

المترقية فى سلم الانسانية لا تشاهد بين الهمج الا بعوارض العصبية التى لاتدخل فى حيز الارادة ، كأنها ضحكة المقرور أو ضحكة المتشنج ، وحتى هذه الضحكات التى تشبه العوارض المرضية لا تشاهد بين الهمج على كثرة تجعلهم يلتفتون اليها ويسمونها بكلمة من كلماتهم القليلة ، فهى والتخبط من الصرع عندهم سواء

لاجرم يجد الفلاسفة غاية الجد فى النظر الى الضحك وأسبابه منذ عهد بعيد ، ولاجرم يجدون اليوم وغدا فى هذه الدراسة بين نفسانيين واجتماعيين ونقاد للفنون والآداب

ونحن فى هذه الرسالة نريد أن نعرف « جحا » ونريد أن نعرف الانسانية كلها بهذه المعرفة

وربما كان بعض ما تقدم من التعريفات مفيدا لنا فى وضع جحا بموضعه من الحياة الانسانية حيث كانت فى كل مجتمع وكل حقبة وكل عنصر وكل قبيل ، فان بعض هذه التعريفات يرينا أن « جحا » ليس بالغريب المجهول فى بيئة من البيئات التى تضحك كما نضحك وتستغرب من نوادر جحا وبوادره مانستغرب ، وبعض الامثلة التى تقدمت نستطيع أن ننسبها الى جحا فلا تخالف فى معدنها ما ينسب اليه ، وهذه احدى العلامات على سريان الضحك مسرى اللغة بين بنى الانسان ، فهو كاللغة يؤدى لجميع الناس معانى مشتركة يتقاربون بها على تباعد المنازل والاجناس ، وهو كاللغة يختلف بين وطن ووطن وبين جنس وجنس ، كما يختلف بين قائل وقائل فى مناهج التعبير بين المتكلمين بلسان واحد فى أسرة واحدة

وسنعرف « جحا » حقا حين نعرف لماذا يضحك الناس

عامة بغير اختــلاف ، ونعرف لماذا يضحكون خاصة من شيء دون شيء ، ومن انسـان دون انسان

وسنجد « جحا » واحدا ولكنه « جحا » الناس اجمعين، لان الناس أجمعين يضحكون منه وان لم يظهر فى غيرموطن واحد أو مواطن متشابهة تحسب كالوطن الواحد . لان الانسـان حيوان ضاحك حيث كان ، ولعله ضحك آلاف السنين ولم يفهم بعد أسباب الضحك على جليتها ، وسنرى ــ بعد ــ مقدار ما فهمه ويفهمه

وسنضحك من بعضها وهى صحيحة أو باطلة ، فنتعلم من الضحك كيف نتلقى تلكم الاسباب



لماذا نضحك؟

بعض الناس يحبون المتعة ولا يعنيهم لماذا يستمتعون بها ، وبعضهم تتم متعته بها اذا عرف أسبابها

قلت فى الكلام عن سارة وهمام من قصة سارة : «تتسرب الى المنزل انباء الاصيل بالاستقراء لا بالمشاهدة فى معظم الايام ، فيقرآن أو يسمعان بعض الاغانى ، أو يلعبان الدومينة قليلا ، وهى لعبة تحذقها سارة ، ويعتقد همام انها أصح الالعاب وأشدها مطابقة للحياة ... فالشطرنج والضامة يعولان على الحيلة ، وكل شىء فيهما مكشوف بعد ذلك ، والنرد يعول على المصادفة والذكاء ، وكل شىء فيه مكشوف بعد ذلك ، والورق اما مصادفة واما صراع قلما يشبه صراع الحياة ... أما الدومينة ففيها حساب للمصادفة ، وفيها حساب للتدبير ، وفيها حساب لليقين ، وفيها حساب للظنون ، وفيها حساب للغيب الذى تجهله انت وخصمك ، وللغيب الذى تجهله أنت ويعرفه خصمك أو يجهله هو وتعرفه أنت ، وللعيان الذى يعرفه كل من يشاء . ولها قوانين تمنعك أن تتحرك على هواك ، ولها حرية تمنحك الخيار بين ما فى يديك

« قالت سارة يوما ، بعد ما استعادته شرح فلسفة الدومينة للمرة الخامسة أو السادسة أو السابعة : « أولا تستمتع بشىء الا أن تكون له فلسفة » ؟

قال : « لا . بل انا استمتع بالشىء ثم أبحث من

فلسفته ، واننى لأبحث عن فلسفته كما يجيل الشارب الكأس فى جميع جوانب فمه ولهواته ، كى لا يبقى جانب من النفس لا يأخذ نصيبه من متاعه ، فأحسه وأعمله وأذكره وأفكر فيه وأستقصى معناه .. »

□

وأقول فى صدد البحث عن أسباب الضحك اننى أشبه هماما فى هذه الخليقة ، واننى أحب أن أفهم ما أحسه وأن أحس ما أفهمه ، واننى جريت على ذلك فى البحث عن اسباب الضحك منذ بدأت الكتابة وتدوين الخواطر والافكار بين الخامسة عشرة والعشرين ، ولهذا أذكر هذه العادة فيما نحن بصدده . لأننى اذا مررت بما اعتقدته من أسباب الضحك قبل العشرين وبعد العشرين وفى خلال النظر والمطالعة والتجربة الى اليوم ــ تدرجت بهذه الاسباب فى أطوار طبيعية تعين على المقارنة والتتبع والوصول الى النتيجة

كانت لى فى نحو السادسة عشرة مفكرة يومية أدون فيها خواطرى وتعليقاتى جمعتها بعد ذلك باسم خلاصة اليومية وحذفت منها عند الطبع كثيرا من الخصوصيات التى ترتبط بتلك الخواطر لا اذكره الآن

وأحسبنى قد كتبت فيها عن المضحكات اكثر مما بقى فيها بالنسخة المطبوعة ، ولكننى لاحظت فيها أن المضحكات أكثر من الضحك وقلت بهذا المعنى فى الصفحة السادسة عشرة من النسخة المطبوعة :

« ان المضحكات ليست بالقليلة ، ولكن الذين يحسنون صناعة الضحك هم القليلون . فليس من الضرورى أن

نفتش عن رجل من أمثال موليير لنغرب فى الضحك ، فان فى كل رجل من الذين نراهم ونعاشرهم موطنا للنقص ، وفى كل عمل موضعا للكلفة والتصنع ... والوادع الناعم البال ــ ولو كان مغمورا بالشقاء ــ ذلك الرجل الذى يعرف كيف يفطن الى مواطن الغرور والرياء من أعمال الانسان ، فانه لا يطبق فمه ما دام يفتح عينيه »

وهنا كنت أقرن أسباب الضحك بملاحظة النقص والادعاء والغرور والكلفة التى يحاول صاحبها أن يخدع الناس عن الحقيقة ، وهى واضحة لمن يلتفت اليها

ولا اذكر اننى تحريت الترتيب عند طبع الخواطر والمفكرات ، ولكننى أجد فى الصفحة الثالثة والاربعين هذه الخاطرة عن الضحك ، وفيها أقول أن « للضحك عدة أسباب أكثرها يدور حول محور واحد هو الاغتباط بأنفسنا ، اما بما نحسه من كمالها أو بسلامتنا من النقص الذى نكشفه فى سوانا

« ولما كان الانسان لا يضحك الا سرورا برجحانه فهو لا يضحك فى الاحوال التى رجحانه فيها معروف غير محدود . فالرجل المعروف المكانة ليس يضحك من تصرف الصعلوك الوضيع وان كان مضحكا فى ذاته ، الا اذا كان يسخر من اهل طبقة ليباهى بطبقته او من أهل بلاد ليباهى ببلاده

« وقد يضحك الانسان من نفسه اذا كان الاستهزاء لا يناله وحده ... فلما كان ملوك أوربا وأمراؤها وسواسها وقوادها مجتمعين فى سنة ١٨١٥ فى فيينا وهم واثقون أنهم أحكموا الشبكة على بونابرت وقد جلسوا

يصلحون ما أفسده ويعيدون ما درسه من معـــالم أوربا
ــ أعلن فى المجلس ... ان الرجل قد أفلت من جزيرة
البا وانه قد عاد ثانية امبراطورا على فرنسا . فوجموا
هنيهة ثم ارتفعت لهم ضحكة طويلة عالية كأنما يقول كل
منهم : ان هذا الكورسيكى لم يعبث بى وحدى ، بل عبث
بنا جميعا »

ويلى هذه الخاطرة عن الضحك خاطرة عن البكاء قلت
فيها أن الانسان « يبكى لغير ما يضحك له : يبــكى حين
يظهر به النقص والعجز ظهورا لا سبيل الى المداجاة فيه .
يبكى فى المواضع التى يشعر لديها بالقهر التــام ويتحقق
له تجرده من الحول والقوة حيالها

« فى تلك المواضع يقول المسلم متمثلا : لا حول ولا قوة
الا بالله . كأنه لا يريد أن يكون ضعيفا الآ أمام الله الذى
يتساوى النـــاس عزيزهم وذليلهم فى الضعف أمام حوله
وطوله . والاطفال المستضعفون أكثر الناس بكاء لأنهم اقلهم
اقتدارا ... على أن عدم البكاء لا يفيد فى أكثر الاحيان
القدرة على دفع المصاب ، فان من أصحاب المظاهر والأبهة
من يترفع عن البكاء ويتكلف الجـــلد والسكون حتى فى
الفجائع الفادحة كأنهم يأبون الاقرار بالانقهار على كل حال »

الضحك والبكاء نقيضان

فى هذه الخاطرة حسبت أن الضحك والبكاء نقيضان ،
وأن الانسان يبكى لغير ما يضحك له ، ومدار الضـــحك
والبكاء معا على الغبطة بالنفس أو نقيضها . فاذا اغتبط
الانسان بنفسه ضحك واذا شعر بالمهانة والنقص بكى

وليست هذه المقابلة بالصحيحة فى جميع نواحيها ، اذ نحن لايضحكنا كل شيء لايبكينا ، وقد يكون الشيء مضحكا ومبكيا كما يقول أبو الطيب :

وكم ذا بمصر من المضحكا ت ولكنه ضحك كالبكا

والأصح أن الضحك لغة تعبر عن كثير من الحالات كما قدمنا فى الفصل السابق ، وليس من اللازم أن يقابله البكاء فى كل حالة ، وقد قال الشاعر بيرون وغيره : « انني أضحك لكي لا أبكي » ... كأنما يقولون ان الضحك بدل من البكاء فى بعض الاحوال ، ويشبه هذا من بعيد قولنا فى تلك الخاطرة أن بعض الناس يتكلفون الجلد والسكون حتى فى الفجائع الفادحة كأنهم يأبون الاقرار بالانقهار

ونقول انه شبه بعيد . لأن الذي يضحك «لكي لا يبكي» يضحك حقا ولا يتكلف الجلد . بل يقدر على الضحك لأنه يكشف من أسبابه ما ليس يكشفه غيره ، أو لأنه يوسع النظر الى المسألة ولا يحصرها فى أضيق حدودها . فهو ضاحك لأسباب أوسع من الاسباب التى تبكى غيره ، وان لم تتناقض هذه الاسباب وتلك الاسباب

وقد كان آخر ما دونته فى خلاصة اليومية عن الضحك كلمة فى الصفحة السادسة والثمانين ، فحواها ان قوة الاستحضار فى الذهن لها شأن فى الشعور بالمضحكات وغيرها ... « فمن أهل هذا الخاطر السريع من تبلغ به قوة الاستحضار أن يستحضر أمرا مضى فيضحك أو يبكى كما لو كان الامر قد وقع له فعلا فى ذلك الحين ... »

وفى ختام هذه الخاطرة أقول ان « الرحمة ليست اذن حيلة اخترعها الضعفاء لمصلحتهم كما افترض النيتشيون ،

ولكنها طبيعة من طبائع الانسان ، والفرق فيها بينه وبين الحيوان فرق بين دماغ ودماغ . فذهن الانسان لارتقاء تركيبه يأخذ الشبيه بالشبيه ، وذلك ما لم يصل اليه الحيوان »

وفحوى هذه الآراء فى مجموعها أن الشعور بالمضحكات والمحزنات ملكة انسانية وجدت فى الانسان ولم توجد فى الحيوانات لانه يدرك المشابهة ويحس بالتعاطف ويستدعى الخواطر من قريب أو بعيد

ملكة السخرية

ولست أحصى تطور هذه الآراء خلال الفترة التى تلت طبع « خلاصة اليومية » سنة ١٩١٢

ولم أقصد خلال هذه الفترة الى كتابة شيء أبسط فيه القول عن أسباب الضحك فى عمومه ، وانما كنت أعود على الموضوع كلما استدعاه التعقيب على مسألة تمت اليه ، كسخرية أبى العلاء والصور الفكاهية فى المرآة من تأليف الاستاذ عبد العزيز البشرى رحمه الله

فابتدأت القول عن ملكة السخر عند المعرى سائلا : « لم يسخر الانسان ؟ »

ثم أجبت قائلا : « انه ينظر الى مواطن الكذب من دعاوى الناس فيبتسم ، وينظر الى لجاجهم فى الطمع واعناتهم انفسهم فى غير طائل فيبتسم ، وهذا هو العبث . وذاك هو الغرور

« فالعبث والغرور بابان من أبواب السخر ، بل هما جماع أبوابه كافة ، وكل ما أضحك من أعمال الناس فانما

هو لون من الوان الغـــرور أو ضرب من ضروب العبث ، وكثيرا ما يلتقيان . فان الغرور هو تجاوز الانسان قدره والعبث هو السعى فى غير جدوى ، ولا يكون هذا فى أكثر الاحيان الا عن اغترار من المرء بنفسه وتعد منه لطوره

« والناس يعلمون ذلك بالبداهة . فهم يعلمون أن الغرور والعبث مادة الضحك وجرثومته التى يتفرع منهـــا كل مضحك من الاعمال والاقوال ، ويجربون ذلك كل يوم فى مداعباتهم لصغارهم وامتحانهم لقوة أطفالهم ، يقبض الرجل كفه لابنه الصغير على غير شىء ، فيأخذه بأن يفتحها ويعده بكل ما يجد فيها اذا هو قوى على فتحها ، فيجاهد الطفل فى ذلك ما يجاهد : يقوم ويقعد ، ويشتد ويحتد ، ويلتوى ويعتدل ، ويرفع اصبعا بعد اصبع ، فاذا الذى رفعه قد عاد فأطبق مرة أخرى ، ويعييه الجهد فيركن الى الملق والخديعة ، وهو فى كل هذا يحسب نفسه قادرا على أن يغلب أباه عنوة وقسرا أو يغلبه خديعة ومكرا ، وهذا هو الغرور

« ثم تلين تلك القبضـــة فيفتحها فاذا هى خاوية واذا بذلك العناء الذى أجهده وبهره قد ذهب سدى ، وهــذا هو العبث ، ومن هذا وذاك تضحكنا الطفولة وتعجبنـــا غرارتها وكبرياؤها ونتخذها تسلية ولهوا . ولــكن هل يضحكنا من الكبار شىء غير هذا ؟ وهل مهازل الحيـــاة ومساخر التمثيل الا صورة مكبرة من هذه اللعبة الصبيانية وسذاجة مركبة من هذه السذاجة البسيطة ؟

« واذا كان هذا معدن السخر وأصل الدعابة فما أجدر رجلا كصاحب رسالة الغفران أن يكون ســـاخرا ؟! بل

ما أجدره الا يكون له عمل فى الحياة غير السخر ؟! انه رجل استخف بالحياة جمعاء ، وهانت عليه الدنيا بما وسعت ، فما من دعوى من دعاوى الناس تتنزه عن الغرور فى اعتقاده، وما من غاية من غايات الناس لا تنتهى فى تقديره الى عبث فارغ وخديعة ظاهرة : كلهم مغرور وكلهم عابث وكلهم متعلق من الأقدار بمثل تلك القبضة التى يعييه أن يفض اصبعا منها ... حتى اذا فضها أو خطر فى وهمه انه فضها لم يجد ثم شيئا ، أو وجدها ملأى بما يشبه الفراغ سخية بما ليس يختلف عن الحرمان ... وكلهم محتقب عدة لا تنجع ومتقلد سلاح لا يصيب :

ورب كمى يحمل السيف صارما
الى الحرب والاقدار تلهو وتسخر

لا . بل هبه وصل الى الحرب بسيفه الصارم وقاتل وظفر وسلم ، فماذا عساه يغنم ؟ ألعله الثناء على الافواه ؟ أو لعله عرش مملكة ؟ .. ان كان ذاك — وقل أن يكون — فلعمر أبى العلاء ما قصارى الثناء والسمعة ؟

وما يبالى الميت فى لحده   بذمه شيع أو حمده

وما العروش والدول ؟ وما الملوك والاقيال ؟ فلكم غبر على هذه الارض من جيل وزال من مجد أثيل وملك عريض طويل

وكم نزل القيل عن منبر   فعاد الى عنصر فى الثرى
وأخرج من ملكه عاريا   وخلف مملكة بالعرا

... وهل نسينا أن القبر يضحك من تزاحم الاضداد ؟ فهكذا تتشابه الامور فاذا الهزل كالجد واذا الحلم كالعيان !

وشبيه صـــوت النعى اذا قيـ
ـس بصـــوت البشير فى كل ناد

لا بل هو كل شيء ككل شيء . هو العلم كالجهل والحق كالباطل والهدى كالضلال

وقد زعموا الافلاك يدركهـــا البلى
فان كان حقا فالنجاســـة كالطهر

فعلام اذن يزعج الانسان نفسه ؟ وبأى شيء يحفـــل ؟ وما اجتهاده فى التدبير والتقدير وتغيير ما كان بما سيكون؟ الا أننا لنسعد ونشقى عبثا ، ونسعى ونسكن عبثا ، ونرجو ونقنط عبثا ، ونبكي ونضحك عبثا ، ومن وراء ذلك كله هاتف يهتف بنا فى غير رفق ولا رحمة :

« تقفون والفلك المحـــرك دائر
وتقـــدرون فتضحك الاقدار »

مرد النكتة

كانت كتابة هذا الفصل بعد طبع خلاصة اليومية باحدى عشرة سنة ، وبعد كتابته بأربع سنوات عقبت على كتـــاب « فى المرآة » للاستاذ البشرى الذى يقول فى مقدمته :

« ان مرد النكتة الى خلل فى القيـــاس المنطقى باهدار احدى مقدماته أو تزييفها أو بوصلها بحكم التورية ونحوها بما لا تتصل به فى حكم المنطق المستقيم . فتخرج النتيجة على غير ما يؤدى اليه العقل لو استقامت مقدمات القياس ... وهذا الذى يبعث العجب ويثير الضحك والطرب . فالنكتة بهذا ضرب من أحلى ضروب البديع ، ولا يعزب عنك كذلك أن النكتة اذا لم تكن محكمة التلفيق متقنـــة

التزييف بحيث يحتاج فى ادراكهـا الى فطنة ودقة فهم خرجت باردة مليخة لا طعم لها فى مساغ الكلام »

وكان تعقيبى على مقدمة الاستاذ البشرى « انه على صواب فى جزء واحد من اجزاء هذا التعريف وهو الذى يقول فيه ان الخلل فى القياس المنطقى مضحك وان التزييف والتلفيق داعية من دواعى السخرية . اما الجزء الذى نراه على غير الصواب فيه فهو قوله ان النكتة هى التى تشتمل على الخلل أو على التلفيق والتزييف . لأن اشتمال النكتة على خلل فى القياس يسقطها ويلحقها بالهـــذر والمجانة ، والذى نظنه نحن أن النكتة تضـحكنا لانها تفضح الخلل وتهتك الدعوى الملفقة وتطلعنا على سخافة العقـول التى لا يستقيم تفكيرها ولا تطرد حجتها . ومن ثم تكون النكتة هى المنطق الصحيح وهى الحجة المفحمـة وهى البرهان الذى يرجح بالبراهين فى معرض الجدال

« ... وقد يسأل سائل : ولماذا تضحكنا النكتة السريعة ولا يضحكنا القياس المفصل والفضيحة المبسوطة ؟ فجواب هذا قد يوجد فى تعليل هربرت سبنسر للضحك وهو خير تعليل وقفنا عليه فى كتاب المعاصرين ، ولا نقصد هنـا الا تعليل حركة الضحك الجسدية لاتعليل أسباب الضحك. فان السبب الذى يذكره برجسون مثلا رجيح صـــالح لتفسير كثير من علل المضحكات ، ونعنى رايه الذى يذهب فيه الى اننا نضحك من كل تصرف فى الانسان يشـــبه التصرف الآلى الخالى من التفكير ، ونحن مع هذا نقول أن التماس علة واحدة لجميع الضحك خطأ لا يؤدى الى راى صائب ، لأن الضحك وان كان اسمه واحدا الا انه ليس

بظاهرة واحدة حتى يكون له سبب واحد

« ونعود الى رأى سبنسر بعد هذا الاستطراد فنقول ان الضحك عنده ينشأ من تحول الاحساس فجأة من الاعصاب الى العضلات . فان من المقرر فى النفسيات ان الاحساس اذا اشتد والحف على الاعصاب تجاوزها الى العضلات فظهر عليها فى حركة عنيفة او رقيقة على حسب قوته واشتداده ، فاذا حبس الاحساس فى طريقه فجأة تحول بغير ارادتنا من الاعصاب الى أسهل العضلات حركة واسرعها تأثرا وهى عضلات الوجه والشفتين ثم عضلات العنق والرئتين ، فتتحرك بالابتسام او بالضحك او بالقهقهة أو بالوقوف والاختلاج عند من يغلبه الضحك وتهتز له عضلات الجسم كله . والدليل على ذلك اننا نضحك اذا غلبنا الاحساس وتحول من العصب الى العضل أيا كان الموحى به والباعث عليه . فنضحك من الغيظ والالم ونضحك الضحكة الهستيرية التى يفرج بها المكروب عن أعصابه المكظومة كأنما يخفف عنها بنقل شىء من ضغط الاحساس عليها الى العضلات ... فالضحك هو الانتقال فجأة من الاحساس الى الحركة العضلية ، والنكتة السريعة تضحكنا لانها تفاجىء التفكير بحالة غير مرتقبة وتعجله عن انتظار النتيجة فى طريقها الممهد المألوف . ومن الامثلة التى أوردها سبنسر للمضحكات منظر جدى يظهر على المسرح فجأة بين حبيبين يتناجيان ... فاحساس النظارة هنا يمشى فى طريق الغزل وينتظر أن يمشى فيه الى نهايته المناسبة له ويوجه الذهن الى هذه الناحية . ولكنه لايلبث أن يلمح الجدى على المسرح حتى يحتبس فى موضعه

ويتحول على غير انتظار الى ناحية اخرى ، فينـــدفع الاحساس من الاعصاب الى العضلات وتحدث الحركة التى نسميها الضحك حين يختلج بها الفم والرئتان ... وفى كل نكتة شيء من هذا التحول الذى مثل له سبنسر ينجم عن المفاجأة بما ليس فى الحسبان ، ويتلخص فى اظهار نتيجة غير النتيجة التى تبدر الى الذهن لأول نظـرة من الشيء المضحوك منه

« فالنكتة الصادقة هى الحجة التى تظهر لنا فســاد الأقيسة المختلفة واضطراب النتيجة التى تأتى فى غـير موضعها وتلتوى على مقدماتها . وهذه هى النكات التى تفيد النفس لانها تروح عنها وتفيد الذهن لانها ضرب من المرانة على التفكير السريع وشحذ للفهم وتقويم له على المنطق السديد . ولنكتة واحدة يفهمها الطالب حق الفهم خير من مائة درس فى المنطق يقرؤها ويعيدها وهو لايحسن القياس ولا يفقه الدليل

« وكتاب الأوصاف المضحكة يعتمدون فى نكاتهم على ملكات كثيرة قد يناقض بعضها بعضا وقد لا يجتمع منها ملكتان لكاتب واحد . فمنهم من يعتمد على ملكة الســخر وهو يحتاج الى الذكاء وادراك الفروق وقد يصحبه شيء من الجد والمرارة ، ومنهم من يعتمد على الدعابة وهى تحتاج الى مرح فى الطبيعة مرجعه فى الغالب الى المزاج لا الى الدرس والتعليم ، ومنهم من يعتمد على الهزل وهو خلق ينشأ عن جهل بتقدير عظائم الاشياء وقد يستحل الضحك فى جلائل الخطوب ، ومنهم من يعتمد على العطف وهو يرضى الانسان عن نقائص الناس ويضحكه كما يرضى الوالد الشفيق عن

جهل وليده الصغير ، وخير هذه الملكات واعلاها ملكة السخر يمازجها العطف ، وهى عبقرية لا تقل فى اقتـدارها على تجميل الحياة وتثقيف النفوس والاذواق عن عبقريةالفلسفة وعبقرية الشعر والتلحين .. »

□

وقد عن لى غير مرة بعد كتابة الفصل المتقدم عن النكتة (فى سنة ١٩٢٧) أن أتوفر على تصنيف كتاب واف أبسط فيه منادح البحث عن مصـــادر الاحاسيس التى تمتزج بالفنون والآداب كالاحساس بالجمال والاحساس بالجلال والاحساس بالمقـدس والاحســـاس بالمليح Pretty والاحساس بالمضحك على أنواعه ، ولكننى وجدت الوقت يضيق عناستيعابهذا البحث لضخامته وصعوبة مسالكه وجدته فى اللغة العربية وسائر اللغات ، فجعلت المس هذا الموضوع متفرقا من حين الى حين ، وكان أهم ما لمســته فى مسألة الفكاهة توضيح أقسام السخرية من حيث النية، اذ يكون منها ما يلجأ ليه الساخر كأنه يفتش عن العيوب الانسانية مستريحا الىوجودها وبقائها ، ويكون منها ما يلجأ اليه الساخر آسفا مضطرا كالأب الذى يعرف عيوب ولده ويبالغ فيهــــا ويفرط فى التأنيب فيقول له انه لا يفلح ولا يرجى وهو فى الواقع أول من يرجو له الفلاح ويتمنى لو يكذب ظنه فى تلك العيوب

□

ووقفت بالبحث حيث وقفت فى الكلام على النكتة ورأى سبنسر وبرجسون فيها ، وأعنى أننى وقفت بالبحث كتابة ولم اقف به عناية بالموضوع واطلاعا على آراء خبرائه وذوى

الاختصاص بفنونه ، وكنت كلما توسعت فى استيعاب آراء الخبراء وتواريخ هذه البحوث من أوائلها بدا لى ان فهم « المضحك » كما فهمته لاول الامر مقابلا للمبكى أو المحزن بداءة طبيعية لهذه البحوث ، فان الفلاسفة الذين تكلموا عنه قبل أربعة وعشرين قرنا انما تحركوا من هذه النقطة ، فوضعوا التراجيدية أو المأساة مقابلة للكوميدية أو المهزلة ، وضموا الجد والبكاء جميعا فى تعريف المأساة كما ضموا الهزل والعبث جميعا فى تعريف المهزلة ، وكذلك فعل افلاطون وفعل ارسطو من بعده واقتدى بهما كل من تصدى لتحليل فنون المسرح والشعر عامة مع قواعد الخطابة والبلاغة فى جميع هذه الاغراض .

يبدأ فهم المضحكات على هذا النحو الذى تغلب عليه المقابلة الاسمية بين الضحك والبكاء ، ثم يتفرع الضحك ويتشعب وتلوح منه الأفانين التى لايقابلها البكاء فى كل حالة ، بل يدخل فيها ويحسب منها فى بعض الحالات

الفيلسوف الباكى والفيلسوف الضاحك

وقبل أن نأخذ فى تلخيص آراء افلاطون وارسطو لاننسى من السابقين لهما فى تاريخ الفلسفة اليونانية اسمين متناقضين كان كلاهما مادة من مواد الضحك وشاهدا من الشواهد التى يسوقها المعنيون بتعريفاته وتقسيماته ، وهما الفيلسوف هيرقليطس المولود فى القرن السادس قبل الميلاد ، والفيلسوف ديمقريطس المولود فى القرن الذى يليه

فالأول كان يلقب بالفيلسوف الباكى لأنه كما زعموا كان دائم البكاء لاترقأ له عين ولا يبتسم له ثغر ، ولايزال ناعيا

على قومه سوء ماصنعوا وما يصنعون فى أمورهم العامة والخاصة

والثانى كان يلقب بالفيلسوف الضاحك لأنه كما زعموا كان دائم الضحك لايكف عن الابتسام أو القهقهة ولا يكرثه خطب من الخطوب جل أو هان

وقد قال جوفنال الشاعر اللاتينى الساخر أن العجب لهيرقليطس أعظم من العجب لزميله ، فان دوام الضحك ـ صحيحا أو متكلفا ـ لايشق على احد يريده ، وأما العجب كله فمن ذلك الفيلسوف الذى يجد فى عينيه معينا لاينضب من الدموع ويحزن جدا أو يتكلف الحزن تمثيلا ولهوا حيثما وجد مع الناس

والقصة كلها « مزدحمة » بشواهد الضحك ومعارض البحث فى حقائقه وأكاذيبه

فمن من الرجلين ياترى أدعى الى الضحك عند الناظرين اليه ؟..

انضحك من دائم البكاء أم نضحك من دائم الابتسام والقهقهة ؟

يخيل الى الأكثرين أن الرجل الذى لاينقطع بكاؤه أدعى الى الضحك من الرجل الذى لاينقطع ضحكه وابتسامه ، وانهما ـ بعد ـ موضوع صالح جدا للدعابة والسخرية

واول مايرد على الذهن من أسباب ذلك أن الضحك الدائم والبكاء الدائم كلاهما غير معقول

وهنا نذكر ان الانسان حيوان ناطق وحيوان ضاحك ، وانه استأثر بالنطق وبالضحك ، لأنهما مقياسان مشتركان للعقل وللمعقول ... وهنا نذكر أيضا أن النكتة وسيلة

لاظهار الخلل المنطقى وان كل الفرق بينهما أن النكتة تفاجئنا باظهار الخلل وأن الدليل المنطقى يسترسل فى اظهاره بغير مفاجأة

ثم يرد على الذهن أن الضحك الدائم والبكاء الدائم كلاهما افراط وخروج من الجد الى ماعداه ، وما عدا الجد يلتقى بالضحك ولو فى بعض الطريق

وغنى عن القول أن الفيلسوفين لم يكونا على الصفة التى تفهم من كلمة الفيلسوف الباكى والفيلسوف الضاحك ، وانهما تعرضا لهذه الزيادة فى الوصف لأنهما مبالغان أراد الناس أن يكشفا هذه المبالغة منهما فوصلا بها الى غايتها المستحيلة ، وصنعا لهما بذلك الوصف صورة هزلية تشبه الصور التى يتعمد فيها الرسامون الفكاهيون ابراز الملامح الشاذة بتكبيرها والخروج بها عن جميع مألوفاتها

ولقد كان هيرقليطس يترجم عن سخطه احيانا بحركات صبيانية ليست من البكاء ولا الحزن فى شىء ، فكان يلعب مع الأطفال ليسأله الشيوخ فيجيبهم بأن الأطفال أعقل منهم فى تدبير اللعب ، لأنهم لم يصنعوا فى الاعيبهم ماصنعه الشيوخ المحنكون فى أحق الأمور بالجد والرصانة

وكان ديمقريطس يسيح فى الأرض من بلاده الى مصر والحبشة وفارس والهند وكل قطر معمور ، وكانت الدنيا على أيامه قائمة قاعدة تهون فيها مصائب الآحاد الى جانب المصائب التى تحيق بالدول والشعوب ، فكان يضحك من أولئك الذين يستسلمون للأحزان ولا يعتبرون بماحولهم من عادات الزمن وصروفه حيث ارتحل وحيث اقام ، وقيل من نوادر جرأته بالسخرية انه اجترأ بها على « دارا » جبار

الفرس وهو يسيح فى بلاده ، فان هذا الجبار أحزنه أن تموت له جارية يحبها فوعده ديمقريطس باحيائها بعد دفنها ، وقال له ان الأمر لايتطلب أكثر من كتابة ثلاثة أسماء على القبر فتعود الجارية الى الحياة ، وسأله « دارا » فى لهفة : « وما تكون هذه الأسماء ؟ » فأجابه الفيلسوف وهو يصطنع الجد : « أسماء ثلاثة لم يفقدوا احدا من الاعزاء » ...

وكان هذا هو العزاء ...

ولاريب أن البديهة الانسانية كانت من قبيل الحديد الذى يفل الحديد . فهى التى لقى منها الفيلسوفان جزاءهما من جنس العمل : سخر كلاهما من قومه فأرسله قومه فى التاريخ على ذلك « الكاريكاتور » بين ضاحك دائم الضحك وباك دائم البكاء

وهذا أيضا باب من أبواب المضحكات التى انطوت عليها قصة الفيلسوف : باب الصورة الهزلية أو الكاريكاتور

ثم يجىء الشاعر الساخر جوفنال فيغمض باختياره عن هذه المبالغة لأنها توافق « القافية » كما نقول فى النكتة العربية ، وما كان للشاعر الساخر أن يجد بين يديه هاتين الصورتين ثم يردهما الى سواء الخلقة ليضيع منه المجال الصالح للتهكم على الموصوفين والواصفين

فلسفة الضحك

على أن هذين الفيلسوفين المضحكين قد زودا فلسفة الضحك من سيرتهما ورسمهما بزاد لم تتزوده تلك الفلسفة من عقلين كبيرين كعقلى الفيلسوف افلاطون وتلميذه الفيلسوف أرسطو وهما أعظم فلاسفة اليونان ولم يعرض



جحا الفيلسوف : الرفق بالحيوان ..!

لفلسفة الضحك بعدهما عقل اكبر من عقليهما الى اليوم

وكان خليقا بأفلاطون وارسطو ان ينفذا الى جوهر الموضوع فى فلسفة الضحك وأسبابه لو أنهما قصداً الى الموضوع فى صميمه ، وأرادا أن يستوعبا الفروض والاحتمالات فى أسباب الضحك وأنواع المضحكات ، ولكنهما لم يقصدا هذا المقصد ولم يتكلما عنه الا عرضا فى سياق البحث عن المدينة الفاضلة والبحث عن الشعر وأقسام الروايات الشعرية

فأفلاطون ذكر المضحكين والمضحكات وهو يبحث عن مكانهم فى مدينته الفاضلة أو جمهوريته المثالية التى أراد ان يقصرها على الأفاضل والمأمونين وأن يجنبها عوارض النقص والرذيلة ، فبدا له أن الشعر موكل بالجانب الضعيف من الانسان بغير تفرقة بين شعر المأساة وشعر الملهاة

فالانسان الكريم يأبى ان يستسلم للبكاء اذا أصيب فى عزيز عليه ولكنه لايبالى ان يبكى وأن يحزن اذا رأى هـذا المنظر معروضا عليه فى رواية فاجعة ، لأن البكاء يخدعه فى هذه الحالة ويوقع فى روعه أنه يبكى لغير مصابه ويغلب على نفسه فى سبيل غيره

والانسان الكريم يأبى أن يفوه بالأضاحيك أو الخبائث المضحكة ولكنه يستسلم للضحك اذا سمعها محكية فى رواية هزلية يمثلها المسرحيون أمامه

وليس بالحسن على كل حال ان يكون فى الجمهورية الفاضلة انسان يغلب على وقاره ضحكا أو بكاء بله الاناسى الذين يصورون الارباب فى عليين مغلوبين على هذه الصورة ، ويقول افلاطون أن الانسان الكريم لايعرف الجد الا بالهزل وأنه من الحسن أن يشهد مناظر الهزل من العبيد والأجراء المسخرين

ولا ينغمس فيها بنفسه . وقد أثنى على المصريين لأنهم يعلمون الأبناء الموسيقى والرقص قياما بالشعائر الهيكلية ولكنهم لايسمحون للشعراء بخلط الألحان بالأغاني المبتذلة والقصائد الموزونة على رقص الخلاعة والمجون ، وقد كانت خلاصة رأيه فى كتاب الجمهورية وكتاب القوانين أن الشعراء يحسنون صناعة الشعر ويستحقون من أجل ذلك أكاليل الغار ولكنهم يلبسونهاويخرجون منالمدينة الفاضلة الىحيث يشاءون

ولم يذكر أفلاطون سبب الضحك الا فى كلمات قليلةخلال هذه المباحث الأخلاقيـــة ، وهو يرى فى تلك الـكلمات ان الضحك مرتبط بالجهلالذى لايبلغ مبلغالايذاء ، وأنالشعراء يضحكوننا حين يحاكون أولئك الجهلاء ، ولكنهم اذا طرقوا موضوع الملحمة أو المأساة عظموا الطغيان وجعلوا رواياتهم حكاية لأعمالهم ، فلا أمان لهم فى محاكاة الجهل ولا فى محاكاة الطغيان

وأرسطو أدق من أستاذه فى تعبيراته عن أقسام الشعر لأنه وضع فيها مبحثا خاصا تتبع فيه المسرحيات المضحكة من أصولها منذ كانت ضربا من الهجاء والأغاني الشهوانية الى ان أصبحت موضوعا للاضحاك والتسلية ، ولهذا جاءت فى الترجمات العربية باسم الأهاجي والتهريجات ولمبيتدعوا لها اسما يقابل اسم « الكوميدية » كما صنعنا فى العصر الحديث اذ سماها بعضهم بالمهزلة وبعضهم بالملهاة وعربها بعضهم بلفظها اليونانى فسماها الكوميدية

وعند أرسطو أن المضحك ضرب من الدميم أو المشوه لايبلغ درجة الايلام أو الايذاء ، وفى نبذة منسوبة اليه من

رسالة مقطوعته طبعها كيبل Kaibel في برلين سنة ١٨٩٩ يقول ان الملهاة تطهر النفس كما تطهرها المأساة ؛ لان النفس المطبوعة على الرحمة أو على حسن الذوق تجد في المأساة والملهاة منصرفا لما تنطوى عليه من العطف والشوق الى الكمال واجتناب التشويه

وكلا الفيلسوفين قد تطرق اليه الخطأ من فهم المأساة والملهاة على أنها نوع من التقليد والمحاكاة ، لأن الشعر المسرحى يعرض الفواجع بتمثيل أناس يحاكون المصابين بها فى حركاتهم وأقوالهم ، وكذلك يفعل بالمضحكات والملهيات

وأفلاطون من أجل هذا ينزل بالمقلدين الى الدرجة الثالثة ، فيقول ان الصورة الفضلى هى صنعة الله ثم يحكيها الصانع الخبير بالصناعة ، ثم يأتى الشاعر فيحكى عمل هذا الصانع حكاية بعد حكاية

ولم يلتفت أرسطو الى منزلة الشعراء المقلدين الا فى سياق كلامه عن الاخلاق والاستطراد منه الى اخلاق الهجائين أو الذمامين ، فلم يكن من همه أن ينشىء مدينة فاضلة يبيح المقام فيها لأناس ويحرمه على آخرين

وليس فى هذا الخطأ عيب على عقل الفيلسوفين الكبيرين ، لانهما بادئان فى طريق لم يسبقهما اليها سابق من الخبراء أو غير الخبراء ، ولكن العجيب منهما حقا أن يحسبا الفن تقليدا أو محاكاة ولا يحسباه خلقا وابتداعا من الشاعر على التخصيص ، مع أن كلمة الشاعر تفيد معنى الصانع أو الخالق باللغة اليونانية

ونقول ان هذا عجيب من الفيلسوفين حقا لأنهما كانا يستطيعان أن يعلما أن وصف كرسى فى الشعر أصعب من

عمل كرسى بصناعة النجارة ، وأن النجار الذى يعمل ألف كرسى لايستطيع ان ينظم بيتا واحدا من القصيدة التى تنظم فى وصف أحد كراسيه ، وهكذا يستطيع الرسام أن يصور كوبا من الفخار ولايستطيع الفخارى الذى يصنع الآنية الفخارية جميعا أن يخرج صورة لكوب صغير منها

وقد زاغ هذا الفهم الخاطىء بالفيلسوفين عن أسباب الضحك فى تفصيلاتها ، لأنهما التفتا الى فكرة التقليد فجعلها احدهما اسفافا دون صناعة الصانع ، وجعلها الآخر طلبا للمعرفة يكاد ان يتساوى فيه المقلد ، ومن يشهد التقليد ويسر بالنظر اليه ، ولم ينظر كلاهما بعين الشاعر لينفذ الى مواطن الضحك فيهما يتحراه من الصور المضحكة ومن تنويع عرضها وتمثيلها

لكنهما على هذا الخطأ الذى لاينجو منه كل مبتدىء قد نجحا فى التعريف بسبب الضحك نجاحا غير قليل ، لأنه كان اساسا لما بناه التابعون كما كان أساسا لنقد الناقدين

فالقول بأننا نضحك من العمل لأنه ينم على جهل لم يبلغ درجة الايذاء والايلام ، او اننا نضحك من العمل لأنه يعرض لنا تشويها لم يبلغ هذه الدرجة ـ كلاهما قول يؤخذ به للمناقشة والتعقيب ولا يرفض كله جملة واحدة فى تعريف من تعريفات المحدثين

وكل مانعترض به على التعريفين أن الانسان قد يتبلد شعوره عن الألم والضحك فى وقت واحد ، فليس كل انسان يرى التشويه ولا يؤلمه يضحك منه ، لأنه قد يكون بليدا يخفى عليه التشويه والألم فى آن

وانما الخلو من الألم شرط لكل استمتاع بشىء من

الأشياء حتى ماكان من قبيل المتعة المادية ، اذ كان الألم على الأقل صارفا للشعور عن سبيل المتعة ، ان لم يكن مناقضا للشيء المضحك أو للشيء الجميل أو للشيء الجليل

ونضرب المثل لذلك بانسان مشوه ينظر اليه صاحب الاحساس المرهف فيدرك مايعانيه ، وينظر اليه الطفل الغر أو الرجل الجلف فيهزأ به أو يولع به للضحك منه واضحاك الناس عليه

فلا يجوز أن تفهم من ذلك أن الرجل الحساس غير صالح للضحك وغير خبير بالمضحكات ، لأنه قد يحس منها مايجهله الأطفال الاغرار والرجال الاجلاف . بل يجوز أن نقول ان الطفل الغر والرجل الجلف لايعرفان مايضحك ولا يعرفان مايؤلم فى وقت واحد

□

وندر من فلاسفة القرون الوسطى من نظر الى الضحك نظرة جدية ورآه فى حكمة جديرا بالبحث عنه وعن اسبابه، لانصرافهم الى البحث فى الاصول الدينية واسرار ماوراء الطبيعة ، ولعل فلاسفة اليونان الاقدمين كانوا على هذا الرأى ولم يبحثوا بعض البحث فى الضحك واسبابه الا فى طريق بحثهم عن التراجيدية والكوميدية مع رجوع هذه فى اساسها الى سير الارباب وشعائر الدين ومحافل الاعياد الوثنية

الا اننا قد نعثر بين الآونة والاخرى على فيلسوف من فلاسفة القرون الوسطى بحث فى معنى الضحك لاتصاله من بعض أطرافه بمباحثه الاخلاقية او اللاهوتية ، واحق هؤلاء بالالتفات الى رأيه فى هذا المبحث يوسف البو Joseph Albo

(١٣٨٠ ـ ١٤٤٥) ، وتوماس هوبز Thomas Hobbes
(١٥٨٨ ـ ١٦٧٩)

فيوسف البو فيلسوف اسرائيلى ممن درسوا فلسفة الاندلس الاسلامية واقتبس منها فى كتابه عن المبادىء والاصول ، وتكلم عن الضحك لانه مذكور فى كتب التوراة ومنسوب الى الانبياء ومنهم ابراهيم الخليل

قال : « الضحك ـ وبالعبرية سحوق ـ كلمة مرادفة لكلمات فى معناها ، تدل على الفرح كما جاء عن ابراهيم انه خر على وجهه وضحك ، ومعنى ذلك انه كان فرحا بما سمع

« وقد يدل الضحك على السخرية والاستهزاء كما يقول القائل : اننى ضحكة للجار ، وربما امتزج معنى الضحك والسخرية كما جاء ان الذى يستوى على السماء ـ الله ـ يهزأ بهم . اذ كان الضحك احيانا دليلا على الشعور باحتقار من يستحق الاحتقار ، وهكذا يشعر من يلحظ نقصا فى كلام احد او عمله ويشعر بتفوقه عليه لانه لا يقع فى مثل ذلك النقص ، فانما يتولاه الضحك لانه يرى الآخر يقول او يعمل ما لا يجمل بالانسان ووقاره

« وعلى هذا النحو ينسب الضحك الى الله فى التعبير المتقدم ، وسببه انه يسمع القائلين يقولون : هلموا نمزق شملهم ، وهى كلمات لايجمل بالبشر ان ينبسوا بها ، على حد قول الربانيين ان سبب المشابهة بين نشيد ابسالوم واخبار يأجوج ومأجوج انه لو سأل سائل : هل من الممكن ان يتمرد العبد على مولاه ؟ لكان الجواب : وهل من الممكن ان يتمرد الولد على ابيه ؟ . . وقد حدث هذا فمن الممكن اذن ان يحدث ذاك

« وواضح من ثم أن ذلك المقال مما لايحسن بانسان ان يقوله والا كان أهلا للازدراء والسخرية . وبهذا المعنى ينسب الضحك الى الاله والى الانسان

« ويضحك الانسان أحيانا اذ يخدع غيره فى أمر كان ينبغى أن يحذره المخدوع وينتبه اليه . ومن ثم يرجع سبب الضحك فى جميع الحالات الى الشعور بالتفوق فى نفس الضاحك حين يرى غيره يقع فى حماقة وأمر ينبىء عن جهالة. ويقول العلماء أن الضحك خاصة انسانية كما يقولون ان اسبابه مجهولة ، ويعنون بذلك اننا لانعلم لماذا يكون الضحك مصحوبا بحركات جسدية معينة ولماذا يحدث الضحك عند لمس الابط أو بعض المواضع الحساسة من الجسد . على أن حدوث الضحك من السخرية معروف جد المعرفة كما بينا فى شرح الآية . . . »

وظل هذا الرأى مأخوذا به فى تفسير الضحك الى أوائل العصور الحديثة ، وهو على التقريب رأى الفيلسوف الانجليزى توماس هوبز الذى يرجع بكل خليقة أو عاطفة ترضي الانسان الى شعوره بالقوة والامتياز والرجحان ، ويرى أن الأخلاق الانسانية المحمودة تدل جميعها على القوة فى صورة من صورها . فالكرم والشجاعة والصبر والعزة والفضائل جميعها لاتنال حمد الانسان مالم تكن مقرونة بالقدرة والدلالة عليها ، وتتساوى الأخلاق النبيلة والعواطف الرفيعة فى هذه الخصلة ، بل تتساوى فيها الأعمال الارادية وغير الارادية كالضحك فى صورته العقلية وصورته الجسدية. فانما يضحك الضاحك لأنه يحس من نفسه انتصارا مفاجئا

أو مزية مفاجئة ، ولابد من شعور النصر أو الامتياز فيما يضحك الانسان ويرضيه

□

وهذا هو الراى الذى توافقت عليه اقوال المتكلمين عن الضحك من عصر الفلسفة اليونانية الى العصر الحديث ، ولا حاجة الى انتظار التعقيب الأخير على جملة الآراء لاظهار الخطأ فى هذا التعليل الذى يصح فى جانب واحد من المضحكات ولا يصح فى جميع جوانبها . فان الانسان قد يضحك احيانا حين يشعر أنه قد انخدع كما يضحك من غفلة غيره حين تجوز عليه الخديعة البينة ، وليس فى هذا دليل على الشعور برجحانه بل هو دليل على شعوره برجحان غيره عليه

والمثل القريب على ذلك ماتقدم عن الضحك « الاجماعى » فى مؤتمر الساسة الذين جلسوا لتضييق الخناق على نابليون ثم جاءهم الخبر فجأة بانطلاقه من جزيرة البا وعودته الى فرنسا . فهذا موقف مغلوبين لاموقف غالبين ، ولا يستقيم تفسيره بشعور الرجحان أو الانتصار من جانب الضاحكين

وكل مايثبت فى جميع الحالات أن هناك مفاجأة وأن المفاجأة تخالف الحالة المطردة أو الاتجاه الذى يجرى فيه الشعور ، وبهذا يسهل تفسير الضحك ممن جلسوا ينظمون القارة الاوربية بعد اعتقال نابليون كأنما هذا الاعتقال أمر مفروغ منه ، ثم تقع المفاجأة بما يخالف الحسبان

افراط المحدثين

واذا كانت الشكوى من الثقافة القديمة قلة البحث فى الضحك وأسبابه فقد يكون الافراط فى هذا البحث شكوى

القارىء من الثقافة الحديثة ، لانها توشك ان تتطلب منه تخصصا ثقافيا مقصورا عليها ، وقد أثبت برجسون نحو اربعين مرجعا من الكتب والأصول ألم بها فى رسالته عن الضحك ، ويمكن أن يزاد عليها ثلاثة أضعافها من المراجع المتفرقة عن فلسفة المضحكات عامة أو عن موضوعات الفكاهة والنكتة فى مزاج هذه الأمة أو تلك أو فى آدابها ومأثوراتها

ويعود هذا الافراط فى الكتابة عن الضحك الى باعثين جديدين فى العصور الحديثة : أحدهما نشأة علم الذوق أو علم الجمال الذى ينظر فى الفروق بين الجميل والجليل والمضحك كما تعرضها الفنون الجميلة ولاسيما التمثيل ، وكأنما كان اهتمام المحدثين بالتمثيل ورواياته وأدواره تجديدا لاهتمام افلاطون وارسطو بالتراجيدية والكوميدية وملكات الشعراء الذين يكتبون فى المحزنات والمضحكات والملاحم الكبرى عن الأرباب والعبادات وما استطردت اليه من موضوعات لاعلاقة لها بالدين وقد تناقضه وتخالف الأدب الواجب للمعبودات وشعائر العبادة . فان عودة الأدب المسرحى فى العصور الحديثة كانت فاتحة البحوث الفنية والفلسفية فى الموضوع من جميع جوانبه واطرافه ، فكان البحث فيه عن المضحك والمبكى والحسن والقبيح مقرونا بالبحث عن المقدس والقداسة فى شعور الانسان وفى الكائنات التى يقدسها ويرتفع اليها بالاجلال والابتهال ، واستدعى تمثيل هذه الكائنات شعرا ونحتا وتصويرا أن توضع لها الحدود والتعريفات وتقام الفواصل بينها وبين مايلتبس بها من المتشابهات أو المتناقضات

هذا أحد الباعثين الجديدين الى افراط المحدثين فى الكلام

على الضحك وتعليل أسبابه وتطبيقه على الفنون المتجددة فى الزمن الحديث

اما الباعث الآخر فهو شيوع البحث فى التطور ومذهب النشوء ... فان هذا المذهب يفسر تعبيرات الانسان عن خوالجه وعواطفه بما يوافق طبيعته الحيوانية ، ويتقصى وجوه الشبه ووجوه الاختلاف بينه وبين سائر الاحياء فى هذه التعبيرات ، ويراقب ملامحه ليربط بينها وبين وظائفه الجسدية واستعداد هذه الوظائف لتلبية العوامل الداخليــة والعوامل الخارجية

ولا يسع الانسان الا أن يبتسم لتناقض النتائج التىوصل اليها اقطاب هذا المذهب بعد بحثهم فى ظاهرة الضحك والفكاهة . فان العالمين العظيمين اللذين توافيا ــ بغير التقاء بينهما ــ الى تحقيق ظواهره وشواهده قد ذهبا الىالطرفين المتقابلين فى تعليل الضحك والفكاهة

فمن رأى الفرد رسل ولاس Alfred Russel Wallace أن الضحك وسائر الخصائص الانسانية التى ينفرد بها النوع الانسانى لاتقبل التفسير بالانتخاب الطبيعى وتطور أنواع الحيوان ، وهو يتساءل كيف يفسر لنا الانتخاب الطبيعى ملكات الرياضة والموسيقى والاحساس بما فوق الطبيعة ؟ ويعود فيقول ان ملكة الفكاهة من هذا الطراز بينالخصائص الانسانية ، لأنها تحتاج جميعا الى تفسير غير تفسير الصراع على الحياة وتنازع البقاء ، ولو كانت من هذه الأسلحة فى النوع الانسانى لما كان مفهوما كيف يتجرد منها معظمالناس ولا تتوفر لغير العدد القليل منهم فى أرقى الحضارات ، ولا كان مفهوما كيف يتجرد منها الهمج والاوائل الفطريون

كما يتجرد منها الأكثرون بين المتحضرين ، فهى كما قال فى تطبيقه المذهب الداروينى على الانسان أخلق بأن تفسر بالمنحة الالهية التى يختص بها الخالق بعض الطبائع الموهوبة ، ولن تقبل التفسير بغير ذلك ولو باعتساف شديد

ومن رأى داروين أن الضحك قد يوجد بمعزل عن التفكير كما يلاحظ على البلهاء وصغار الأطفال الذين يضحكون ليعبروا عن حالة الرضى والارتياح ولا يصحبون ذلك بفكرة أو خاطرة ذهنية ، والأصحاء من الراشدين تعتريهم حالات الضحك لأسباب غير أسبابه فى الطفولة ، ويصدق هذا على الضحك ولكنه لايصدق على الابتسام ، وكأنما يعبرون بالضحك عن حالة مقابلة لحالة البكاء الذى يقترن بالشدة والكآبة العقلية كما يقترن بالخوف والغضب ، ولعل شيئا من الغرابة المفاجئة مع شىء من الشعور بالتفوق هو أشيع الأسباب لضحك الكبار الراشدين . ومن الواجب الا تكون الظروف على جانب عظيم من الخطر والجسامة ، فان الرجل الفقير ـ مثلا ـ لاينتظر منه أن يضحك اذا سمع فجأة أنه كسب مقدارا كبيرا من المال ، ولكن العقل اذا هاجه الشعور بالمسرة وطرأت عليه خاطرة صغيرة غير متوقعة فالنشاط العصبى يفرج عن نفسه بتحريك العضلات تلك الحركة التشنجية الخفيفة التى نسميها الضحك

قال فى كتابه عن تعبيرات العواطف فى الانسان ان الجنود الألمان اثناء حصار باريس كانوا يندفعون الى الضحك لكل تفاهة من تفاهات النكتة بعد طول التعرض للخطر الشديد ، ويقول مستر هنتون من سان فرنسسكو انه كان يتناوبه الصياح والضحك وهو على التلال عند الباب الذهبى معرض

لأفدح الأخطار ، وهكذا يشاهد على الاطفال الصغار وهم يهمون بالبكاء أن بكاءهم يتحول الى ضحك حين يطرأ أمامهم طارىء غير متوقع ، مما يفهم منه أن الضحك يفيدهم فى تصريف فيض الجهد العصبى الذى يحسونه على تلك الحال

وينظر داروين الى أسلوب المجاز حيث يقول القائل ان الخيال دغدغته فكرة مضحكة فيلاحظ أن دغدغة الخيال مماثلة لدغدغة الجسد ويتخذ المثل من ضحك الاطفال و « تشنج » أجسامهم الصغيرة بفعل الدغدغة ثم يلاحظ أن القردة العليا تبدر منها أصوات مرددة فى مثل هذه الحالة ، ويعود فيفرق بين الضحك من فكرة مازحة والضحك من أثر الدغدغة الا فى أمر واحد وهو أن يكون الفكر فى حالة راضية ، فكما ان الطفل يصيح ولا يضحك اذا دغدغه رجل غريب واشتدت عليه حركة الدغدغة كذلك ينبغى ان يكون الفكر بعيدا من الجفوة والشعور بالاكتراث والاهتمام ، وتحدث الدغدغة الجسدية فى المواضع التى لاتتعرض كثيرا للمس ولا يكون موضع الدغدغة معروفا قبلها ، وكذلك تحدث الدغدغة الفكرية من خاطر غير معهود ولا معروف قبل ذلك ، ويبدو ان عنصر الطروء أو المنافرة الذى يجرى فى سياق التفكير هو العنصر القوى فى تكوين المضحكات

ثم يراقب داروين عوارض الضحك على الوجه والجسم ويحصيها احصاء دقيقا فى تتابعها على حسب الرخاوة أو العنف فى الشعور ، ويقرر أن الشعور العنيف كله يتخذ تعبيرا واحدا فى حالتى الحزن والسرور وأن مشاهدة ذلك ميسورة لمن يراقب العصابيين (الهستيريين) والأطفال لسرعة تأثرهم بأنواع الاحساس ، فانهم يتراوحون بين الضحك والبكاء

فى الوقت الواحد وينتقلون من الشعور الى نقيضه لانهما عندهم متقاربان . وشأن القبائل الفطرية عند داروين كشأن الاطفال فى هذه الخصلة ، لانه رأى فى جزر ملقة نساء يبكين اذا أغربن فى الضحك ، وروى أقوال السائحين عن سكان استراليا الاصلاء فقال انهم يقفزون ويصفقون وتغرورق أعينهم بالدموع وهم مرحون ضاحكون ، ثم قال ان الاستراليين والأوربيين يتشابهون فى ضحكهم جميعا من رؤية المحاكاة . ومن القبائل الفطرية فى جزيرة سيلان أناس لايضحكون لمنظر قط من المناظر المضحكة ـ فيما رواه هارتشورن Hartshorne ـ لأنهم يقولون اذا سألوا مستغربين : وما الذى يدعو الى الضحك فى هذا أو ذاك ؟.
الا أن الابتسام والضحك فى جميع الأمم يجريان فى مسلك واحد فلا يستطاع وضع الحد الحاسم فى الحركات أو المعانى بين دواعى الضحك ودواعى الابتسام . . .

وظاهر من دراسة داروين كلها للتعبيرات الانسانية والحيوانية انه يتجه بمراقبته الى العوارض الجسدية التى تعم جميع بنى الانسان وقد تعم بعض الحيوان فى بعض الأحوال ، والعوارض الجسدية ادق لديه من العوارض الأخرى التى لايسهل ضبطها وتعميمها ولا يسهل كذلك تعليلها بالانفعالات المشتركة بين الناس من جانب وبين الناس والأحياء العليا من الجانب الآخر ، وهو على خلاف زميله فى مذهب النشوء والتطور ـ الفرد ولاس ـ موكل بالتعميم والاشباه الشائعة دون تلك الملكة الخصوصية التى يرى صاحبه أنها مزية محدودة لايفسرها تنازع البقاء كأنها ملكة الادراك الرياضى والبداهة الموسيقية وما اليها . فبينما

يهبط داروين الى عوارض الضحك التى يقل فيها التفكير كضحك الأطفال والعصابيين والقبائل الفطرية ـ يرتفع ولاس الى ملكة الفكاهة العالية التى يمتاز بها آحاد من النوابغ قلما يزيد عددهم على عدد العباقرة الذين يكشفون خفايا الحقائق الرياضية ودقائق النسب الموسيقية ، ويعلمون الناس كيف يفهمونها ويدركونها بعقولهم وبصائرهم فلا يتيسر للكثيرين أن يجاروهم على فهمها وادراكها

والنزعة الوجدانية هى سر الاختلاف فى النظـــرة الى المضحكات بين العالمين الكبيرين . فداروين يبحث عن وحدة الأنواع الحيوانية فيهبط الى مواطن الشبه بين أرقى الأحياء واقل الناس ويعقد الصلة بين هؤلاء وهؤلاء بوحدة العوارض الجسدية التى تصاحب الضحك من تأثير الدغدغة أو تأثير المشاهدات الحسية ، ويعنيه ان يراقب عوارض الدغدغة فى القردة التى تتأثر بعض المواضع فى اجسامها باللمس المفاجىء على غير المألوف

وكل هذا لايفسر الملكة التى يعنيها زميله ولاس ويعلو بها الى الطبقة التى ينفرد بها الآدميون بل ينفرد بها آحاد من الآدميين ، لأن نزعته الوجدانية تتجه الى الايمان بالروح الالهى ومزاياه التى يفيضها على الأرواح الانســانية كلما تهيأت لها بهداية السماء

ولم يزعم داروين انه فسر الضحك كله واستوعب الكلام فى أسرار المضحكات على اختلافها ، وانما أراد منها ماتثبته التعبيرات المحسوسة وتطرد فيه الملاحظة اطرادا يقبل التعميم

ويقال هذا أيضا عن الفلاسفة الذين درسوا الضحك من

ناحية علم الذوق أو علم الجمال . فانهم تناولوه من وجهة المقابلة بينه وبين الأحاسيس الجميلة أو الجليلة أو المقدسة ولم يستوعبوا أصوله وتفريعاته فى دراسة مستقلة تحيط به فى معانيه الفنية ومعانيه الحيوية

فخلاصة رأى كانت Kant ان الضحك ينشأ من التوقع الذى ينتهى فجأة الى غير طائل ، وخلاصة رأى شوبنهور أن الضحك فى جميع الأحوال نتيجة المفاجأة بادراك عدم التناسب بين الشىء المضحك والشىء الذى يخطر على البال أنه يشبهه ، وخلاصة آراء الباحثين فى الجميل والجليل عامة أن المضحك هو النزول بالجليل ــ أو الوقور ــ فجأة الى الابتذال والاسفاف ، وأنه فى جملته نوع من الحطة Degradation يسرع الذهن فى الالتفات اليه

وليس من اليسير أن نستقصى هنا كل ماقيل فى تعريفات الضحك وأسبابه ، فان الجمع الذى يدل على طائفة قليلة من نماذج التفكير أجدى من احصاء التفصيلات التى تتبعثر بغير رابطة بينها تدور على محور معلوم

ونرى اننا قد نستغنى عن تتبع الآراء المبعثرة فى تعليل الضحك اذا اجتزأنا منها بتلخيص ثلاثة آراء نموذجية هى رأى سبنسر العالم الانجليزى وبرجسون الفيلسوف الفرنسى وفرويد الطبيب النمسوى صاحب مذهب النفسانيات الحديث

فرأى سبنسر رأى عالم نشوئى يفصل رأى داروين وينقحه ويزيد عليه من الوجهة العلمية الطبيعية

وبرجسون فيلسوف ينظر الى الوجهة الاجتماعية ولا

يهمل الوجهة الفنية ، وان كان يوجزها ولا يستقصيها

وفرويد ينظر الى الدخائل النفسية مع ارتباطها بالمجتمع وعلامات الصحة والمرض فى الآحاد

وقل أن يوجد رأى فى الضحك لايلتقى بهذه الآراء فى جزء من الأجزاء



ثلاثة آراء فى الضحك

كتب سبنسر رأيه بعنوان فزيولوجية الضحك :

The Physiology of Laughter

وهو عنوان يدل على مدار البحث كله ، ويؤخذ منه أن الباحث انما أراد أن يفسر عوارض الضحك الجسدية وارتباطه بالأفكار والأحاسيس التى تستدعيها

وفكرته تشابه فكرة داروين فى أساسها ، ولكنه يخالف القائلين بأن الضحك محاولة عضلية للتخلص من شعور مكرب أو غير محتمل ، ويخالف القائلين بأن الضحك يتولد من الشعور المفاجىء بالغبطة والرضى عن النفس بما يوحى اليها من السلامة أو الرجحان

ويقول سبنسر ان هذا كله قد يحدث ولا يحدث معه الضحك ، وأنه لابد لتمام العوارض جميعا من التحول المفاجىء من سياق الى سياق فى وجهة الشعور

يشتغل الموسيقى بتوقيع قطعة من الحان موسيقى بيتهوفن مثلا فيعطس احد الحاضرين عطسة قوية يسمعها الحاضرون خلال التوقيع ، فيضحكون

ليس فى الاستماع الى الموسيقى شعور مكرب تتخلص منه النفس بالضحك ، ولكن الذى حدث أن العطسة غيرت مجرى الشعور أو حبسته عن المضى فى طريقه المألوف ، فتنقله هذه المفاجأة من اعصاب الحس الى العضلات ، ويحدث الضحك من جراء هذا الانتقال

ويقف العاشقان على المسرح يتناجيان ويتغاضبان أو

يتراضيان ، واذا بجدى يضل طريقه ويذهب الى العاشقين فيقطع عليهما وعلى النظارة هذه المناجاة ، فيحدث من هذه المفاجأة ما أحدثته العطسة القوية أثناء سماع الموسيقى ، ويضحك النظارة الذين كانوا يرقبون منظر المناجاة ولم يكن فيه مايكربهم أو يحبون التخلص منه بالضحك ، وانما يغلبهم الضحك لانتقال الشعور من وجهته المطردة ، ولابد له اذن أن ينتقل من اعصاب الحس الى العضلات

يقول سبنسر : ولا يحدث هذا لجميع السامعين اذا كان فيهم من يستغرقه الشعور بالموقف ولا يدع فيه بقية للانتقال منه والالتفات الى غيره . فان هؤلاء قد يغفلون عنه أو يغضبون لتنبيههم من الشعور الذى هم مستغرقون فيه

ويقول سبنسر ان المؤثرات لها فى الانسان ثلاثة منافذ : منفذ الحس ، ومنفذ الفكر ، ومنفذ الحركة العضلية ، وانها كلها قابلة للتحول من منفذ الى منفذ سواء بدأت بالتفكير أو بدأت بالحس أو بدأت بحركة من العضلات

فالرجل الذى يهرب من الخطر الداهم يجرى وتشتغل عضلاته بهذه الحركة ، ولكن هذه الحركة العضلية لاتستغرقه ولا تمنعه أن يفكر فى الخطر والحيلة التى يحتالها أو العمل الذى يعمله للنجاة منه

فاذا كان الخوف أهون من الخوف على الحياة فربما انصرف بالحركة وأصبحت الحركة ضربا من الرياضة التى يتشاغل بها الانسان عن حالته النفسية

والطفل يصفق اذا فرح لأن شعوره ينتقل من الأعصاب الى العضلات ، وربما فرك الرجل الكبير كفيه فى مثل هذه

الحالة ، لأنه تعود هذا الشعور أو تعود أن يتحول عنده الى الفكر كما يتحول الى العضلات

ومما يدل فى رأى سبنسر على أن الضحك من حركات رد الفعل أو من الحركات الانعكاسية انها حركات لغير قصد أو حركات غير مقصودة بارادة صاحبها ، كأنها غمضة العين للوقاية او رعشة البرد التى لايريدها المقرور

ويتبسط سبنسر فى وصف تأثير هـذه الانفعالات غير الارادية فيرى أن تأثير الشعور قد يعطل تفكير الخطيب على الرغم منه وهو واقف امام الجماهير يحس وجودها ويخشى ان يتلعثم امامها أو لاينال موافقتها واعجابها ، ولو أنه وقف ليلقى خطابه امام الكراسى الخالية لانطلق تفكيره بغير عائق من الحس والشعور . وهاهنا ثلاثة عوامل مشتركة فى التأثير على الخطيب : عامل الحس اذ يرى الجماهير ، وعامل الشعور اذ يخشى التقصير والخيبة ، وعامل الفكر الذى يشغل الحس والشعور جانبا منه فلا ينطلق مع اشتراكها كما ينطلق على انفراد

فالسريان بين منافذ الحس والتفكير والحركة طبيعى فى المؤثرات النفسية ، وكلها تجرى فى مجراها الطبيعى من الفكرة الى الحس والحركة ، أو من الحس الى الحركةوالفكر ، أو من الحركة الى الأحاسيس والأفكار

غير أن الحس أو الفكر لاينتقل الى العضل الا فى غياب الحس والفكرة التى من قبيله ، فاذا كان الالم شديدا جدا يستوعب الشعور كله فهو لاينتقل الى العضلات عند المفاجأة ، لأنه يجد طريقه فى اتجاه الشعور بغير عائق يحلده عن مجراه

ويستطيع من شاء أن يحقق ذلك بمنظر يذكره أويتخيله

على وفاق المألوف من تجاربه ومشاهداته :

اذا جلس الناس فى مأتم وحدثت على مشهد منهم مفاجأة مضحكة فقد يضحك الغرباء عن المأتم وقد يضحك الصغار الحاضرون وان كانوا من أهل الميت ، ولكن الكبار المفجوعين لايضحكون لأن شعورهم يفيض فى مجراه ولا تشغله المفاجأة المضحكة حتى تنتقل من الحس الى حركة العضلات ،وربما أثارهم وأغضبهم ان يروا أمامهم أحدا يضحك وهم مغلوبون بالأسى والفجيعة

وملاحظة سبنسر ـ هذه ـ مهمة جـــدا فى تصحيح التعريفات الاخرى ، ومنها تعريف أفلاطون وأرسطو وغيرهم للضحك اذ يقولون أنه نتيجة الشعور بالسخف أو التشويه الذى لم يبلغ مبلغ الايلام والايذاء

فالألم مانع للضحك لأنه يشغل الشعور بغير المضحكات ومتى اشتغل الشعور بشىء آخر لم يشعر الانسان بالجمال ولا باللذة ولا بالسرور ، وليس الأمر هنا خاصا بالمضحكات دون المحاسن واللذات والمسرات

ان المفاجأة التى تعوق الاحساس عن مجراه وتحوله الى العضلات كافية وحدها للضحك ولا حاجة معها الى استثناء الألم ، لأن الألم استثناء لــكل شــعور وليس بالاستثناء للمضحكات دون سواها

أما اذا كان الاحساس من القوة بحيث لاتعوقه المفاجأة فانه يجترفها فى طريقه ولا يتحول الى العضلات ، ولا يحدث الضحك من ثم على الرغم من جميع المفاجآت

واذا قال قائل عن جدول الماء انه يجرى ما لم يعقه عائق، فهو لا يقول لنا شيئا عن طبيعة الماء دون غيره . فهكذا

يحدث لكل متحرك انه لا يتحرك مع وجود العائق فى طريقه سواء فى ذلك حركة الماء وحركة البخار وحركة السهم وحركة القذيفة من أقوى المدافع والراميات

وكذلك يكون من قبيل تحصيل الحاصل أن يقال أن الضحك يحدث مالم يمنعه الالم . فان الالم يحجب الشعور بالمضحكات وغير المضحكات : يحجب المتعة بالنكتة كما يحجب المتعة بالجمال والجلال واللذة وبدائع الفنون على الاجمال

ويؤكد هذا مالاحظناه آنفا على تعريف أرسطو الذى يشترط فى الدمامة المضحكة ألا تبلغ حد الايلام . فان الانسان البليد لا يتألم ولا يفطن للضحك فى وقت واحد ، واذا جمعنا اثنين أحدهما مرهف الاحساس والذهن والآخر ثقيل الاحساس والذهن فلا يلزم أن يكون هذا أكثر فطنة للضحك من ذاك لانه بطىء الالم . بل يبطىء شعوره بالالم وشعوره بالضحك فى وقت واحد ، ويغفل عن التشويه كله بجميع درجاته فلا يلمحه ولا يحسه فى درجة من الدرجات

ومن ثم ننتهى بعد ما تقدم الى الثقة من شرط واحد فى المضحكات وهو شرط المفاجأة التى تتحول بالشعور عن مجراه . فاذا كان الشعور جاريا فى مجراه ــ كشعور الحزن العميق ــ فالمفاجأة لا تدفعه الى الضحك ، واذا كان فى المجلس نفسه احد لا يبلغ منه الحزن ذلك المبلغ من العمق والاستغراق فانه يضحك من المفاجأة لانها تستطيع أن تتحول بالمنظر ، أو المسمع ، من حس الاعصاب الى حركة العضلات

راى برجسون

والراى الثانى بين الآراء النموذجية هو راى هنـــــرى برجسون الفيلسوف الفرنسى صاحب مذهب دفعـــــة الحياة

ورأيه فى الضحك أنه فى وقت واحد تطور منطقى وحاسة اجتماعية

فنحن نضـــحك اذا رأينا انسانا يتصرف تصرف الآلة ويقيس الامور قياسا آليا لا محل فيه للتمييز المنـطقى ، ولكننا نضحك فى الجماعة عامة ولا نضحك منفردين لان الضحك تنبيه اجتماعى أو عقوبة اجتماعية لمن يغفل عن العرف المتبع فى المجلس أو فى المحفل أو فى الهيئةالاجتماعية بأسرها

والضحك عند برجسون انسانى بمعانى الكلمة جميعا ، فلا يشاهد فى غير الانسان ولا يستثيرنا الضـــحك فى غير عمل انسانى أو عمل نربطه بالانسان

فنحن لانضحك من منظـــر طبيعى أو من جماد كائنا ما كان الا اذا ربطناه بصورة انسانية ، وجعلناه شـــبيها بانسان نعرفه أو منسوبا الى عمل من أعمال الناس . وقد نضحك من قبعة نراها فلا يكون الضحك من القبعة بل من الانسان الذى يلبسها ونتصور هيئته فيها

ومن شروط الامر المضحك عند الفيلسوف أن يكـــون عملا انسانيا بغير معنى ، أو يكون المعنى فيه مطردا على طريقة آلية كأنه من أعمال الادوات المجردة من التفكير

ومن شروط الامر المضحك عنده ان يحصل فى جمـــاعة أو يرتبط بالتصرف فى الجماعة • فقلما يضحك الانسانعلى

انفراد الا اذا استحضر العلاقة الاجتماعية فى ذهنه ، وقلما ننظر الى أحد يضحك على انفراد الا خامرنا الشك فى عقله ما لم يكن له عذر نعلمه ، فلا يزال الضحك على انفراد محتاجا الى اعتذار وتوضيح

لهذا يقرر برجسون أن الضحك مرتبط بالتصرف المنطقى وبالحاسة الاجتماعية فى وقت واحد . فهو وسيلة من وسائل المجتمع لحمل أبنائه على التصرف فيه تصرف الراشدين الذين يفقهون معنى ما يصنعون

ويفسر الفيلسوف أنواعا كثيرة من الضحك على ضوء هذه الشروط . فيقول مثلا ان مرونة الحركة تهم الاطفال كثيرا فهم يضحكون من كل حركة تصطدم بغير وعى ويفقد فيها المرء قدرته على المرونة ، ويقول ان كل خلل فى الحركة يضحكنا اذا قارنا بين الخلل الواقع ، وبين اللباقة التى يستدعيها تمام الخلقة والتكوين والتصرف المعهود . وكثيرا مايضحكنا شرود الذهن لان الانسان الذاهل ينسى عقله وحاسته الاجتماعية ويتكلم أو يعمل على غير ماتقتضيه الحالة التى هو فيها

ويومىء الفيلسوف الى مناظر المحاكاة فيقول ان المحاكاة تضحكنا لانها عمل يشبه عمل الآلات وتضحكنا لانها تلفت النظر الى الغفلة أو التناقض فى الانسان المحكى لانه شبيه بالآلات ، واذا رأينا وجهين يتشابهان تشابها تاما ضحكنا لاننا نتصور أنهما مصنوعان فى قالب واحد كما تصنع الوجوه التمثيلية

ويضحكنا ان يتحكم الجسد فى العقل والارادة تحكما غير مناسب للموقف الحاضر ، فنضحك من الخطيب الذى

تغلبه الحماسة والعطاس فى وقت واحد ، ويضحكنا أن نرى أمامنا أحدا يطبق على الاحياء أحكام الآلات ، وهذا هو سر ضحكنا من الطبيب الذى يقول للمريض أن موته باطل لانه لم يجر على وفاق الاصول المتبعة

ويضحكنا الرجل الذى تتكرر فى كلامه لازمة محفوظة نتوقعها فنضحك حين نسمعها

وهذا المثل من أمثلة برجسون جدير بالانتباه اليه ، لانه يرجح رأيه على آراء القائلين بشرط المفاجأة فى الضحك

فالرجل الذى يكرر لازمة واحدة يضحكنا حين نسمع ما ننتظره منه فلا يقال اذن انه يضحكنا بالمفاجأة ، بل يصح فيه رأى برجسون وهو الرأى الذى خلاصته أن المضحك من أعمال الانسان هو الذى ينساق فيه انسياق الآلات

□

ونحن نستدرك ما يستدرك من هذه الآراء فى أثناء تلخيصه ، وقبل الانتقال الى التعقيب الاخير عليه ، لاننا نحب أن ننتهى الى النتيجة خالصة من الاعتراض والاستدراك خالية من اللبس ودواعى الاطالة فى المناقشة والتمحيص

والمثل الذى يجب الانتباه اليه من أمثلة برجسون يرجح رأيه على رأى القائلين بالمفاجأة لاول وهلة ، ولكنه لا يلبث أن يعود بنا الى القول بالمفاجأة من جانب آخر

فمشابهة الآلات هى فى ذاتها مفاجأة مستغربة من الآدميين العقلاء . ولهذا يتفق القولان ولا يتناقضان ، ويجوز أن يقال أن المفاجأة ومشابهة الآلة شىء واحد ، وأن مشابهة الآلة باب من أبواب المفاجأة لا يستوعبها ولا يمنع الضحك من غيرها

وأما الضحك من تكرار اللازمة التى تنتظرها فهو لايدل قطعا على نفى المفاجأة أو على الضحك من الشىء لانه منتظر، بل هو نوع من استعادة الضحك السابق كما نبتسم عندما يمر بخاطرنا تمثيل دور مضحك شهدناه من قبل ونود أن نعيده ونتملاه من جديد

وهذا المثل ـ بالذات ـ أصلح الامثلة لتوضيح الحقيقة فى هذا الخلاف

فاللازمة المتكررة لابد انتتكرر حتى تصبح لازمةملحوظة وحين نبدأ بالاستماع اليها لا نلاحظ أنها لازمة تعاد فى مناسبة وفى غير مناسبة الا اذا سمعنا صاحبها يتكلم فى مسائل شتى ويعيد لازمته على اختلاف هذه المسائل وتناقضها ، ومتى ثبت لدينا أنها لازمة وانتظرناها فانما نحن نستعيد ضحكا سابقا ولا ننشىء الضحك لاول مرة ، ويصدق على هذا النوع من الضحك انه من قبيل استعادة المناظر التى سبق لنا أن ضحكنا منها وأحببنا أن نتملاها ونرجع اليها حينا بعد حين

▭

ونستطرد بعد هذا فى سرد الامثلة المتعددة التى ينطبق عليها رأى برجسون ، ومنها غير ما تقدم مثل الشاطر الذى يغلب بالشطارة ، أو مثل الفخ الذى يقع فيه واضعه ، فان هذا الشاطر ـ على شطارته ـ يتصرف كالآلة حين ينعكس عليه عمله وهو أحق من سواه بالاحتراس منه

وهذا المثل ـ كالمثل السابق ـ يمكن تفسيره برأى برجسون ورأى القائلين بالمفاجأة معا . لاننا نتوقع من

الشاطر أن يغلب غيره بالحيلة ونشعر بالمفاجأة حين يقع غير المتوقع وهو انخداعه بما يخدع به الناس

ويعلل برجسون ضحك الكثيرين من النكتة الجناسية بأنها تحول الذهن من المعنويات الى الحسيات . لان الكلمتين المتجانستين تتشابهان فى اللفظ وتختلطان فى المعنى . فيتصور السامع الحركات الجسدية وهو يفكر فى المعانى الاخلاقية أو الذهنية ، وهذا الضحك يشابه الضحك من الخطيب الذى تأخذه الحماسة لفكرة من الافكار ثم يغلبه العطاس .. فانه فى هذا الموقف مغلوب لضرورات جسده الآلية ويتصرف على الرغم منه كما تتصرف الآلات

وعلى هذا النحو مواجهة الذهن بكلمتين متجانستين احداهما مادية والاخرى معنوية ، وتلحق بالجناس كلمات الكناية والاستعارة والمجاز وسائر الكلمات التى تواجه الذهن بصورتين احداهما لائقة بالانسانية والاخرى غير لائقة ، كأن يقال عن أحد انه من أهل اليسار ، أو انه فنان، أو انه جبل ، أو انه طويل الباع

والحاسة الاجتماعية عند برجسون أعم من جميع الاسباب . فالضحك اذن ملكة اجتماعية يراد بها تصحيح الخطأ فى معاملة الجماعة ، وهو يتناول الاخطاء التى لاتبلغ حد الاجرام لان المجتمع يعالج هذه بالجزاء القانونى أو بالانتقام ، ويتناول الاخطاء التى ينبو عنها الذوق كل النبو مع سوء النية لان المجتمع يداوى هذه بالنفور والاشمئزاز وانما يكتفى بالضحك من الاخطاء التى يسهو فيها الانسان عن التقاليد الاجتماعية على غير قصد وبغير نية سيئة .. فهذه الاخطاء يكفى فى التحذير منها أن يتعرض صاحبها

للضحك وان يكون هذا الضحك عقوبة على قدر الاساءة العارضة ، فيحسب فى هذه الحالة كأنه قانون خفيف حيث لا حاجة لتطبيق القانون الذى يحمى المجتمع من الجرائم والاضرار الجسام

بل يكاد يكون الضحك عقابا اجتماعيا خفيفا لمن يدينون بالاحكام الحرفية ويطبقون القواعد فى دقة وصرامة توحى الى الذهن أن الذى يطبقها آلة لا تفكر ولا تحس بماتصنعه ولا تفرق بين جزاء وجزاء وتقدير وتقدير

ففى هذه الحالة يكون الضحك تصحيحا للاحكام المبالغ فى «دقتها الحرفية» لانها صفة آلية لاتليق بالقياس المنطقى والتقدير السليم

وزبدة الامثلة جميعا فى راى برجسون تلخص اسباب الضحك فى حماية المنطق الانسانى وحماية الحاسة الاجتماعية على الخصوص . فكلما هبط الانسان من مرتبة التصرف المنطقى الذى يناسب علاقاته الاجتماعية كان ذلك مثيرا للضحك منه لتنبيهه الى تقصيره، على شريطةالوقوف بهذه الاخطاء عند حد لا يبلغ الاجرام ولايدخله سوء النية ، بل يخلو من كل قصد يقصده الكائن العاقل المتصرف ، فيرتد الى الحركة الآلية التى تتجرد من القصد فى جميع الحركات

راى فرويد

بقى من الآراء النموذجية راى سيجموند فرويد Freud الطبيب النفسانى صاحب المذهب المشهور الذى شاع وشاعت مصطلحاته على الالسنة حتى أصبح حديث الوعى

الباطن والعقد النفسية ومركب النقص وما اليها من احاديث الخاصة والعامة وكاد هذا المذهب أن يستأثر بتفسير خفايا النفس البشرية فى مسائل الاخلاق والعادات والبواعث الفردية والاجتماعية

وقد أفرد الطبيب النفسانى رسالة مسهبة للكلام على النكتة ومدلولاتها الاجتماعية والفنية ومواطن الشبه بينها وبين الاحلام والرؤى فى الوظيفة التى تؤديها للفرد وللجماعة

وزبدة راى فرويد ان النكتة ضرب من القصد الشعورى والعملى يلجأ اليه الانسان فى المجتمع ليعفى نفسه من أعباء الواجبات الثقيلة ويتحلل من الحرج الذى يوقعه فيه الجد ولوازم العمل ، وان النكتة تشبه الحلم فى اساليبه وهى التورية والتأويل والاختزال والمسخ والتلفيق ، أى جمع الصورة الواحدة من أجزاء صور متفرقة لاتجتمع فى الواقع

والناس يقولون عن الرجل انه يمزح أو يقولون عنه انه يحلم على السواء حين يريدون اعفاءه من المؤاخذة ولايريدون الجد معه فى المحاسبة والتحقيق ، وكأنما يحتال المرء بالفكاهة على بلوغ أمر لا يبلغه بالحجة والدليل ، وكذلك يحتال فى احلامه على تحقيق الامانى التى تفوته فى اليقظة وتشغل باله على غير جدوى ، فهو يستعين بالنكتة أو بالحلم على صعوبة واحدة وهى تيسير الواقع والاعفاء من الكلفة والمشقة

وقد أورد فى رسالته أمثلة كثيرة سنشير الى بعضها ونكتفى هنا بنادرة واحدة من النوادر الفكاهية التى تساوى الاحلام فى رفع الكلفة والسماح لقائلها أو سامعها بما هو

محظور عليه اذا جد فى القول وعبر عن غرضه بالكلام الصريح :

رجلان من أصحاب الملايين صنعا صورة لهما عند رسام مشهور وعرضت الصورتان فى معرض عام وبينهما فجوة تتسع لصورة ثالثة . فقال أحد الناظرين وهو يتأمل الصورتين وينظر الى الفجوة التى بينهما : هاهنا متسع لصورة السيد المسيح

وسمع الواقفون كلمته وعلموا انه يقول عن صاحبى الملايين أنهما لصان ، لان القصة المسيحية تقول ان السيد المسيح وضع على الصليب بين لصين ، وعلموا أيضا أنه يعنى أنهما يستحقان الصلب كما استحقه أولئك اللصان ، ولكنهم ضحكوا . وسمع صاحبا الصورة ماقيل فلم يجدا سبيلا الى مؤاخذته أو رفع أمره الى القضاء ، ولعلهما لو فعلا لاتهمهماالناس بالجلافةوجرا علىنفسيهما من السخرية ماكانا فى غنى عنه

ويريد فرويد منا فى هذه النادرة واشباهها أن نتخيل قائل النكتة وهو يحلم ويعزى نفسه عن الحرمان من الثراء. فانه سيخلق فى منامه قصة يتمثل فيها صاحبى الملايين مشهرين بين الناس بالسرقة أو مسوقين الى ساحة القضاء أو مغلقين وراء جدران السجون ، فيعمل الحلم عمل النكتة فى ترضية الرجل بأسلوبين مختلفين يصدران عن باعث واحد لغاية واحدة

ويسرد فرويد أنماطا من النكتة تشترك بين الجناس والمغالطة ورد الحيلة بحيلة من قبيلها والتفاهم على الكذب والاجوبة المسكتة وكشف السر على غير قصد وغيرها من

المضحكات مما ينطبق عليه تعليله بسهولة أو ينطبق فى صعوبة وتعسف

وهذه أنماط منها ننقلها بغير ترتيب ، ونبدأ منها بنادرة تشبه النوادر التى تروى عن قره قوش وتصلح للدلالةعلى وحدة المنطق الفكاهىبينالناس على تباعد الاقطار والاجناس

يروى فى بعض قرى المجر أن حدادا اقترف جريمة يعاقب عليها بالموت ، فحار قاضى القرية فى أمره لانهالحداد الوحيد فى القرية ولا تستغنى عنه بغيره اذا نفذ فيه الحكم، ثم اهتدى بعد التفكير الى حل المشكلة باعدام الطرزى بدلا منه لان القرية فيها طرزيان !

ومن الاقوال المضحكة التى استشهد بها فرويد قول الشاعر هاينى فى امرأة يعيبها فى قالب الثناء فيقول انها تشبه تمثال الزهرة « فينوس » .. لانها مثلها عتيقة جدا ، ومثلها بغير اسنان ، ومثلها فى البقع البيضاء على بشرتها الصفراء

وشبيه بهذا الثناء المعكوس قول القائل عن رجليهجوه انه يشبه جميع العظماء ، فهو كالاسكندر ينحرف راسه الى جانبه ، وكيوليوس قيصر يكمن شىء فى شعره على الدوام ، وهو يفرط فى شرب القهوة افراط ليبنتز ، وينسى الاكل والشراب اذا جلس على المائدة كأنه اسحاق نيوتن ، ويحتاج كما يحتاج اسحاق نيوتن الى من يوقظه .. وهو يلبس الشعر المستعار كالدكتور جونسون ، ويترك سراويله مفتوحة كمؤلف دونكيشوت

ومن نوادر فرويد عن اليهود ــ وهو يهودى ــ انيهوديا راى على لحية زميله بقايا طعام فقال له : « اننى أستطيع

ان أذكر لك الصنف الذى أكلته بالامس » . قال زميله : « حسن ، قل ودعنا نسمع » فقال له صاحبه المتعالم: «انك أكلت فولا » .. فسخر منه آكل الفول وقال : « كلا . انك غلطان ياهذا ، فانني أكلته أول من أمس » !

وتلاقى يهوديان فى القطار فسأل أحدهما الآخر : « الى اين تذهب ؟ » فأجابه الآخر : « الى كراكاو » فغضب السائل وعاد يقول : « لماذا تكذب على ؟.. انك تعلم انكاذا قلت لى أنك ذاهب الى كراكاو فهمت أنا أنك ذاهبالىلمبرج .. ولكنني أعلم فى هذه المرة أنك ذاهب حقا الى كراكاو .. فلماذا هذا الكذب ؟ »

ويذكر فرويد من فن النكتة أسلوبا يعتمد على اللعب بلفظة واحدة تجعل من هدفها أضحوكة سهلة ، ومن قبيل هذه النكات قول مزاح مشهور : « ان فلانا له مستقبل عظيم وراءه ! » .. وقوله عن وزير زراعة أخفق فى عمله فعاد الى حقله : « انه عاد الى مكانه أمام المحراث ! »

ويذكر أسلوبا يعتمد على اللعب بصفة واحدة تختلف مراميها ، كما قيل عن فتاة كانت على اتصال بجميع رجال الجيش : « انها تذكرنا بدريفوس ، لان الجيش لا يصدق ببراءتها »

ويذكر المغالطة فى الجواب ، ومن قبيلها ان رجلا قصد الى أحد المحسنين وافهمه انه فى عسرة شديدة وأنهيحتاج الى قرض يسير للنجاة من كارثة محققة ، وبعد اعطائه القرض بساعة رآه المحسن اتفاقا فى مطعم من مطاعمالطبقة العليا وأمامه صفحة من السمك الفاخر فقال له مؤنبا : « أهكذا تنفق المال الذى تستعيره للضرورات لتأكل به

الصحاف الفاخرة؟ » فأجابه المحتال وكأنه دهش من سؤاله: « عجبا لك يا سيدى ! متى تظننى آكلها : ان كنت لا آكلها مفلسا ، ولا آكلها وفى يدى ثمنها ؟ »

وعلى هذا النمط قصة مدرس فى احدى القرى مولع بالشراب لم يزل يدمن السكر حتى اعتزلته جميع الاسر ونفر منه تلاميذه . فنصح له صديق قائلا : « انك تستطيع أن تجمع عندك تلاميذ القرية جميعا لو تركت الشراب، فلماذا لا تحاول وتجرب ؟ » فأجابه المدرس السكير : « على رسلك ياهذا .. انما أعطى الدروس لاجد الشراب فهل ترانى أترك الشراب لاعطى الدروس ؟ »

وقريب من هذا اللعب بالمقابلة قول القائل فى تفاهة الحياة : « انها نصفان نقضى نصفها الاول متطلعين الى الثانى ، ونقضى نصفها الثانى متأسفين على الاول ! »

وسمع فولتير قصيدة روسو الشاعر الفرنسى الذى كتبها يوجه فيها الخطاب الى الاجيال المقبلة ، فعقب عليها قائلا : « هذا خطاب لا يصل الى المرسل اليه »

وللاجوبة المسكتة نصيب وافر من أساليب الضحك عند فرويد ، وهذه أمثلة منها :

كان القيصر أغسطس يسيح فى أرجاء ملكه فلمح شخصا يشبهه كل الشبه ، فسأله :

ـ أكانت أمك تعمل فى بيتنا ؟

فأجابه الشبيه الجرىء :

ـ كلا .. بل كان أبى

وكان بعض الوعاظ الامريكيين ينادى بحقوق السود فى بلد ليس فيه كثير من السود . فقال له رئيسه :

ـ لم لا تذهب الى كنتكي حيث يقيم أصحابك ؟
فسأله الواعظ المسئول :
ـ ألست يامولاى تعمل لانقاذ الارواح من النار ، فلماذا لاتذهب الى جهنم ؟

ويتخلل الامثلة كلها نوادر متفرقة تعتمد على الجناس اللفظى الذى لاينقل من لغة الى لغة ولا حاجة الى نقله لكثرة هذه الفكاهات الجناسية فى اللغات جميعا ولاسيما العربية . ثم يختم الرسالة بتلخيص لتقسيم المضحكات الى ثلاثة أقسام : النكتة wit والهزل comic والدعابة humour

وكلها مما يفسر عنده بالقصد فى القوى النفسية ، ولكن النكتة قصد فى العاطفة التى يكلفنا كبتها الكثير من مجهود النفس ، والهزل قصد فى الفكر والمنطق ، واما الدعابة فهى قصد فى الاحساس ، واننا نتطلب هذه الافانين جميعا بعد سن الطفولة التى لا تعرف المفارقات المضحكة ولا تقدر على تفكير النكتة ولا تحتاج الى الدعابة لتشعر بالسعادة

□

والى هنا يبدو لنا ان الامثلة التى استشهد بها رائد المدرسة النفسية الحديثة لا ينطبق عليها تفسيره فى جميع الاحوال ، وان القصد فى الشعور أو التفكير قد يتحقق بالنكتة أحيانا ولكنه لا ينشئها ولا هى متوقفة عليه

ولنرجع الى نادرته عن اليهودى الذى قابل زميله فى القطار وسأله عن وجهته فصرح له بذهابه الى كراكاو وعتب عليه زميله لهذا الكذب لانه كان سيذهب فعلا الى كراكاو ولم تجر العادة بذكر الوجهة الحقيقية فى اجابة أمثال هذا السؤال

فلا قصد فى هذه النادرة ولا ادخار ، وليس فيها موضع لزيادة فى المقال أو الاتهام ، ولكنها تضحك السامع لانهـا تفاجئه بغرابة اللوم لهذه المناسبة ، فان السامع يسمع اللوم على الكذب فلا يخطر بباله أن الكذب فى عرف المتحدثين هو الجهر بالصدق الصراح، ثم يفاجأ بسبب اللوم فتكون المفاجأة عماد الفكاهة هنا كما كانت عماد الفكاهة فى جميع النوادر التى استشهد بها فرويد من المغالطات او التحريفات او الاجوبة المسكتة ، وليس فى الجواب المسكت قصد فى الشعور أو القول، ولكنه مثل واضح للمفاجأة على الخصوص حين يكون السائل على ثقة من احراج المسئول فلا يلبث أن يأتيه الجواب السريع فيرتد الحرج اليه

□

ويجوز لنا بعد هذه التعليقات الموجزة أن نفهم أن رأى برجسون وراى فرويد لا يناقضان تفسير الضحك من الوجهة الجسدية كما أجمله داروين فى كتاب التعبيرات وفصله سبنسر فى مقاله عن الضحك من الوجهة الفزيولوجية وأنهما لايغنيان عن ذلك التفسير فى النهاية سواء كان سبب الضحك فكرة أو مشاهدة حسية ، لان نتيجته هى ان يتأثر الجسد به على النحو الذى ذهب اليه سبنسر وداروين من قبل

مفاجأة تحبس الفكر أو الشعور عن مجراه فيتحول عنه الى العضلات ويبدأ الاثر فى أسهل هذه العضلات حركة ثم يسرى الى غيرها من عضلات الجسم كله اذا اشتد الباعث على الضحك

ولا تناقض بين هذا وبين قول برجسون اننا نضحك من الانسان اذا تصرف فى حركاته وأقواله تصرف الآلة الصماء . فان هذا التصرف يفاجئنا بشيء لم ننتظره من انسان عاقل تجرى أعماله على حكم المنطق الفطرى الذى طبع عليه الانسان المسمى بالحيوان الناطق أو الحيوان المنطقى بعبارة أخرى . فنحن ننتظر عملا منطقيا فنرى أمامنا عملا آليا على غير انتظار أو على خلاف المنتظر ، وهذه هى المفاجأة التى ترجع بنا الى تفسير داروين وسبنسر ، وقد ضحك الانسان من النقائض المفاجئة قبل شيوع الآلات وخلق له جهاز الضحك قبل احتقاره التشبه بالآلة

وقول برجسون أن الضحك تنبيه اجتماعى لمن يذهلون عن آداب البيئة لا ينقض هذا السبب ، لانه فائدة من فوائد الضحك لا تفسر أسبابه ولكنها تدل على غاية من غاياته ، والفرق ظاهر بين الاسباب والغايات

ويرجع بنا رأى فرويد الى المفاجأة كما يرجع بنا راى برجسون اليها. فاناستخدام الضحك أحيانا فى «الاقتصاد الشعورى » هو ايضا من قبيل الفوائد التى نستفيدها منه، وليست الفوائد كما تقدم مبطلة للأسباب

وليس فى النوادر التى تمثل بها فرويد نادرة واحدة تخلو من المفاجأة وتغنينا عن تفسير سبنسر أو تفسير داروين ، فالجواب المسكت مفاجأة ، والحيلة التى ترتد على صاحبها مفاجأة ، والتخلص السريع بالمغالطة التى تخالف المنطق المألوف مفاجأة ، وتكذيب الجواب الصادق لان الصدق غير مألوف من صاحبه مفاجأة ، وسائر النوادر التى نقلناها او لم ننقلها ترجع بنا الى علة المفاجأة من اقرب طريق

وقد فرق الباحثون فى الضحك بين كثير من المضحكات لاختلاف أسمائها كما تختلف كلمات السخرية أو الاستهزاء أو الدعابة أو الفكاهة

فاذا استرسل الناظر فى تتبع هذه الفـــروق وجد فى النهاية أنها تؤول الى فروق بين أنواع الضاحكين وليست فروقا بين أنواع الضحك فى أصوله

فالضحك كله مفاجأة تتحول بالفــكرة او الشعور عن مجراه

ولكن السخرية التى تؤلم الناس أو تكشـــف عيوبهم ومثالبهم هى ضحك الشرير الخبيث

والاستهزاء الذى يتعالى صاحبه على الناس هو ضحـك المتكبر الذى غلظت نفسه فلا يبادلهم الشعور، أو هوضحك العابث الذى يستخف بكل شىء ويجد الناس وهو ناظر الى جدهم بغير اكتراث

والدعابة التى يشترك فيها الضاحك والمضحوك منه هى ضحك القلب الطيب الذى يسر نفسه ويسر غيره بمـــا يكشفه من هفواتهم او يعرضه من نقائضهم ، فلا يحسون أنه يفردهم بتلك النقائض أو يأخذ تلك الهفوات مأخـــذ الشماتة والخيلاء

والفكاهة التى تمثل لنا المضحكات هى ضحك الفنـــان اوالناقد الذى يصور لنا دواعى الضحك ويبدع فى تصويرها وتمثيلها ، فهو مضحك وليس بأضحوكة ، أو هو واضع الضحك وليس بموضوع للضاحكين

وهذه كلها فوارق بين الضاحكين وليست فوارق بين انواع الضحك فى الصميم

ومن الشائع جدا أن يقترن بالضحك شعور الغبطة بتفوقنا على الآخرين ، ولكن لايندر أن نضحك من أنفسنا اذا فوجئنا بالهزيمة التى لا نتوقعها فى موقف نظن فيه اننا نحكم الشباك لغيرنا فاذا هو قد أفلت من تلك الشباك وأوقعنا فيها

ومن هذه الهزيمة المفاجئة ضحك الساسة والامراء حين بلغهم افلات نابليون من جزيرة ألبا وعودته الى فرنسا وهم يحسبون انهم وضعوه فى القفص وجلسوا بعده يقررون مصير القارة الاوربية من بعده

ولو انهم فوجئوا بنابليون يحاصرهم فى مؤتمرهم ويهددهم ساعته فى أرواحهم أو عروشهم لما ضحكوا كما ضحكوا وهم آمنون فى تلك الساعة

الا أن هذا لا ينفى ان المفاجأة مضحكة ، وأن السامع البعيد يضحك منها وان لم يضحك منها الساسة والامراء المحاصرون لاشتغال شعورهم بالخطر القريب ، ولهذا يبقى عنصر المفاجأة قائما فى تفسير اسباب الضحك . ويختلف الامر بحسب الضاحكين فى الشعور بالخطر ساعة المفاجأة ، فمن كان قريبا شغله الخوف عن الضحك ومن كان بعيدا لم يشغله عنه خوف عاجل يغطى على شعوره فى تلك الساعة

ويتساوى فى هذا الشعور بالضحك والشعور بالجمال والشعور باللذة ، فلو كان المعروض على مؤتمر الساسة فتنة من فتن الزهرة ربة الجمال وحاصرهم العدو المهدد لحياتهم لشغلهم الخطر عن الشعور بذلك الجمال الفتان ،



جحا لشبيه جحا : حسبتك أنا . . لان
ثيـابك كثيابي ومشيتك كمشيتي !.

ولو كانت مائدة طعام جمعت مالذ وطاب بين أيديهم ثم حوصروا ذلك الحصار لشغلهم الخطر كذلك عن طلب الطعام اللذيذ وعن طلب القوت

فلا يلزم اذن أن نقول أن الشيء المضحك هو الشيء المشوه الذى لم يبلغ درجة الايلام ، لان بلوغ درجة الايلام يعطل كل شعور ولا يعطل الشعور بالمضحكات دون سواها

وصحيح ـ بعد هذا ـ أن نجمل التفسيرات جميعا فنقول ان الضحك ينجم عن مفاجأة تتحول بالفكر وبالشعور عن مجراه ، وأن الاختلاف بين السخرية والاستهزاء والدعابة والفكاهة لا يلجئنا الى البحث عن اختلاف فى أنواع الضحك لانه هو فى لبابه اختلاف بين الضاحكين



الضحك

فى الكتب الدينية

فى القرآن الكريم

لا يتقابل شعوران من طرفى التعظيم والاستخفاف كما يتقابل الشعور بالمقدس والشـــعور بالمضحك فى النفس البشرية

ولا يوجد لنا مرجع نعتمد عليه فى هذه المقابلة الواقعية أولى بالرجوع اليه من الكتب المقدسة ، ولا سيما الكتب التى تسوق العبرة من القصص والامثال وتروى الاخبار عن الضحك والضاحكين من مختلف الطبائع والامزجة وفى مختلف المناسبات

وهذه الاخبار متكررة فى القرآن الكريم ، وكلها شاهد محكم للعالم النفسانى يركن اليه فى تفسيره لاطوار النفس البشرية ، حيث تبرز حقيقة الضحك مع سياق الكلام عنه فى كلام مقدس ، لبروز الفارق بين الشعورين : شعور القداسة فى موضعها وشعور الضحك بشتى معانيه

جاءت الاشارة الى الضحك فى القرآن الـكريم مرة فى قصة ابراهيم ومرة فى قصة سليمان عليهما السلام

ففى قصة ابراهيم يقول ابراهيم حين زاره الملائكة فلم يعرفهم وخافهم ثم بشروه بولادة اسحاق من زوجتـــه سارة :

« ... فلما رأى أيديهم لا تصل اليه نكرهم وأوجس

منهم خيفة قالوا لا تخف انا أرسلنا الى قوم لوط وامرأته قائمـــة فضحكت فبشرناها باسحاق ومن وراء اسحاق يعقوب قالت يا ويلتى أألد وأنا عجوز وهذا بعلى شيخا ان هذا لشيء عجيب »

فهنا خوف فاطمئنان فبشرى مفاجئة على غير انتظار ، فتعجب لا تملك سارة أن تجهر به فتقول : ان هذا لشيء عجيب

كل عوامل الضحك النفسية التى ظهـــرت للباحثين النفسانيين فى تفسيراتهم ــ تعرضها هذه الآية الكريمة على نسقها المتتابع فتــأتى بالضحك حيث يأتى الضحك مطردا فى مواضعه المختلفة من تحول الشعور طمأنينة بعد خوف ، ومعرفة بعد نكران ، وبشارة بما ليس فى الحسبان من الولادة بعد سن اليأس وخيبة الامل فى الذرية زمنـــا طويلا تعتلج فيه النفس بأشتات من دواعى الحزن والعزاء والغيرة والتسليم

ولا تغنى هنا كلمة «سرت أو كلمة استبشرت أو فرحت» فى مكان كلمة ضحكت . فان الضحك هو الاثر الملائم لهذه الحالة التى تشـــابكت فأصبحت فى قرارة النفس حالات متناقضات

□

وجاء فى القرآن الكريم عن قصة سليمان عليه السلام : « حتى اذا اتوا على وادى النمل قالت نملة يأيها النمـل ادخلوا مســـاكنكم لا يحطمنكم سليمان وجنـــوده وهم لا يشعرون فتبسم ضاحكا من قولها وقال رب أوزعنى أن

أشكر نعمتك التى أنعمت على وعلى والدى وأن أعمل صالحا ترضاه »

فهاهنا عوامل الضحك على سجيتها ماثلة فى نقائضها الدقيقة ومصاحباتها التى تقترن بهـا على حسب هذه المناسبة دون غيرها ، وهى مناسبة مخالفة فى بعض أجزائها لمناسبة الضحك فى قصة ابراهيم

هنا الفارق الشاسع بين ضآلة النمل وبين ضخامة الملك الذى أوتيه سليمان

وهنا عجب سليمان من ظن النملة انه لا يدرى بموقعها ولا يشعر بها ولا يفهم عنها ما تقول

وهنا رضى سليمان بما تفيضه نعمة الملك العريض فى نفسه من السعة والغبطة وتلهمه من الشكر والخشوع ، وكل ذلك آت من حيث لا ينتظر : من نملة ضئيلة تخشى أن تحطم هى وواديها كلها ولا يشعر بهم سليمان العظيم

وورد الضحك فى آيات متفرقة بمعنى السخرية والاستهزاء ، فجاء فى سورة المطففين : « ان الذين أجرموا كانوا من الذين آمنوا يضحكون واذا مروا بهم يتغامزون واذا انقلبوا الى أهلهم انقلبوا فكهين واذا رأوهم قالوا ان هؤلاء لضالون وما أرسلوا عليهم حافظين فاليوم الذين آمنوا من الكفار يضحكون على الارائك ينظرون »

فالضحك هنا مقترن بالتغامز الخفى ، كأنما يحسب المستهزئون انهم يستغفلون المؤمنون الذين يمرون بهم فيسخرون منهم بالتغامز بينهم ، ويضحكون اذا التفت اليهم المؤمنون على حين فجأة فلا يملكون اخفاء العبث والسخرية ، كما يحدث دائما بين المتغامزين اذا انكشفوا

وامتنع عليهم الكتمان والتمادى فى الاستهزاء من وراء الانظار

والضحك الاخير يأتى حين لم يكن فى الحسبان ، لأن الكفار كانوا يضحكون فاذا بهم قد انقلب عليهم الامر فهم أضحوكة للضاحكين ، وهؤلاء وادعون على الارائك ينظرون

وجاء فى سورة الزخرف : « ولقد أرسلنا موسى بآياتنا الى فرعون وملأه فقال انى رسول رب العالمين فلما جاءهم بآياتنا اذا هم منه يضحكون »

وضحك المفاجأة هنا واضح من طلب الآيات ثم اخلاف ظن موسى عليه السلام لانهم عثوا به وهو ينتظر منهم بعد مجيئهم بالآيات أن يؤمنوا فاذا هم يفاجئونه بما لم ينتظر من اصرارهم على الكفران

ولا بد فى كل ضحك من الشعور بالمفاجأة فى الضاحك أو فيمن يتعرض للضحك . فهو شعور ملازم للمضحكات من طرفيها

وفى سورة النجم عن نوح عليه السلام : « وقوم نوح من قبل انهم كانوا هم أظلم وأطغى والمؤتفكة أهوى فغشيها ما غشى فبأى آلاء ربك تتمارى هذا نذير من النذر الاولى أزفت الآزفة ليس لها من دون الله كاشفة أفمن هذا الحديث تعجبون وتضحكون ولا تبكون وأنتم سامدون فاسجدوا لله واعبدون »

ففى هذه الآيات يحسب الرسول انه يأتيهم بما يبكيهم فلا يحسون داعية للبكاء ويستغربون فينتقل بهم الاستغراب من أحاديث الرسول عن نذير الآزفة المطبقة الى الأمان الذى يتصورونه ولا يحسون غيره . وبين هذين النقيضين

المتباعدين يتعجب القوم ويضحكون : موقف لا وسط فيه بين البكاء والضحك . فاما أن يحس السامع نذير الآزفة فيبكى أو يستغربها ويستبعدها فيضحك تعجبا من كلام القائل واطمئنانه الى الأمان الذى يقال لهم انهم مهددون فيه

والضحك من البلاء الذى لا يحســــه السامع ويحس نقيضه كالضحك من البلاء الذى يحسه ويحس أنه ناج منه ، وقد تكرر ذكر الضحك بهذا المعنى فجاء فى سورة التوبة عن المخلفين الذين فرحوا بمقعدهم عن القتــال : « فرح المتخلفون بمقعــدهم خلف رســول الله وكرهوا أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله وقالوا لا تنفروا فى الحر قل نار جهنم أشد حرا لو كانوا يفقهون فليضحكوا قليلا وليبكوا كثيرا جزاء بما كانوا يكسبون »

وهذا الضحك أيضا مقرون بالســـماع عن الخطر مع الشعور بالامان ، فهو ــ كما تقدم ــ كالشعور بالخطر حيث يغلب اليقين بامتناعه أو يمتنع بعد نذير لا يخيف

□

وقد ورد فى القرآن الكريم ذكر الضحك بمعنى السرور لأنه يلازمه فى معظم دواعيه ومظاهره

وورد ذكر السخرية والاستهزاء ، وهما فى أكثر الآيات بمعنى الاستخفاف والكبرياء ، أو بمعنى التردد بين حالتين: حالة ظاهرة وحالة باطنة تناقضها ، ولا يخفى أن تقـــل الشعور بين هاتين الحالتين سبب من أسباب الضحك على اختلاف الضاحكين : « واذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا

واذا خلوا الى شياطينهم قالوا انا معكم انما نحن مستهزئون
الله يستهزىء بهم ويمدهم فى طغيانهم يعمهون »
وما من آية ورد فيها ذكر السخرية الا كان فيما تحتويه
شعور قوم فارغين باجتهاد الانبياء وندائهم فى غير طائل
على ما يبدو لأولئك الفارغين ، ويتكرر هذا الضرب من
السخرية فى قصة نوح لانه من جهة ينذر ويحذر ويتوعد
بالغضب المحيق ، وهم من جهتهم وادعون غافلون يمرون
به وهو جاهد فى عمل الفلك فيتضاحكون :
« ويصنع الفلك وكلما مر عليه ملأ من قومه سخروا
منه قال ان تسخروا منا فانا نسخر منكم كما تسخرون
فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ويحل عليه عذاب
مقيم »
وكلا الجانبين ـ جانب نوح وجانب قومه ـ فيه أمان
مع خوف يتناقضان ، وفيه ثقة تناقض الثقة التى تقابلها ،
فكلاهما عنده سبب للسخرية بين هذين النقيضين

فى التوراة

وقد مر بنا استشهاد الفيلسوف العبرى بالتوراة عن
ضحك الاله ممن يغترون بقدرتهم ويعتزمون أمورا يجترئون
عليها ثم يعجزون عنها
وهذا الشاهد مأخوذ من المزمور الثانى الذى يقول
ناظمه انه يسمع دعوى المغرورين فيضحك لأنه أخبر منهم
بما يريده الرب على عرشه ، وهذا نص المزمور :
« لماذا ارتجت الامم وتفكر الشعوب فى الباطل
« قام ملوك الارض وتآمر الرؤساء معا على الرب وعلى

مسيحه . لنقطع قيودهما ولنطرح عنا ربطهما
« الساكن فى السماوات يضحك
« الرب يستهزىء بهم . وحينئذ يتكلم عليهم بغضبه ويرجفهم بغيظه . أما أنا فقد مسحت ملكى على صهيون جبل قدسى
« اننى أخبر من جهة قضاء الرب »

فالضحك هنا يترجم عن حالتين متناقضتين : احدهما غرور ظاهر بالقوة ، والآخر حقيقة هذا الغرور العاجز الذى لا قبل له بما يدعيه

والاختلاف بين هاتين الحالتين هو مثار الضحك مجازا بالنسبة للاله ، وحقيقة بالنسبة الى الانسان

وجميع ما ورد فى العهد القديم عن الضحك فانما يفهم الضحك فيه بمعنى الاستهزاء والسخرية اذا كان من المنكرين ، وبمعنى الاستغراب والدهشة اذا كان من المؤمنين

وجميع هذه الشواهد ينحى على المستهزئين لأنهم يستكبرون ولا يصدقون ، فهم يستهزئون بالانبياء لأنهم يرونهم بأعينهم مدعين القدرة ظاهرا وعلى غير شىء فى الباطن ، والانبياء يستهزئون بهم لأنهم يرون الحقيقة معكوسة من جانبهم على أولئك المنكرين المستكبرين، فهؤلاء المنكرون المستكبرون هم الذين يتنفخون على هواء ، ويرى النبى صورتهم المنتفخة وصورتهم الخاوية فيرى منهم تناقضا يوحى بالاستهزاء ، ولا سيما حين يفتر أصحابه فيستهزئون بالعارفين

ففى سفر أشعيا يقول النبى عن الامراء والسادة :

« اسمعوا كلام الرب يا رجال الهزء ـ ولاة هذا الشعب الذى فى أورشليم »

وفى الامثال من الاصحاح الاول كلام عن ضحك الشماتة والاستهزاء يقول فيه صاحب السفر : « انى دعوت فأبيتم ومددت يدى وليس من يبالى ، بل رفضتم كل مشورتى ولم ترضوا توبيخى ، فأنا أيضا أضحك عند بليتكم ، اشمت عند مجىء خوفكم »

وليس أكثر فى كتاب الامثال من الاشارة الى الاستهزاء بمعنى الكبرياء والغرور والجهالة ، ومن الاشارة الى جزاء المستهزىء وأثره السيىء فى قومه وحكمة تأديبه لينتفع الحمقى بعبرته ويزدجروا بالنظر الى مصيره

قال : المستهزىء يطلب الحكمة ولا يجدها

وقال : المنتفخ المتكبر اسمه مستهزىء عامل بفيضان الكبرياء

وقال : اضرب المستهزىء فيتذكى الاحمق

وقال : بمعاقبة المستهزىء يصير الأحمق حكيما

وقال : المستهزئون يفتنون المدينة ، أما الحكماء فيصرفون الغضب

وقال : الابن الحكيم يقبـــل تأديب ابيه والمستهزىء لا يسمع انتهارا

□

وكتاب الامثال أكثر الكتب فى العهد القديم اشارة الى الهزء والاستهزاء ، وهو تكرار يوافق طبيعة السفر كله ، لأن الامثال سفر الحكمة والتجربة وهما نقيض الاستهزاء الذى يستخف صاحبه بجميع الامور ولا يزال كذلك حتى

تهديه تجارب الايام الى الاعتبار بالحوادث وبعد النظر فى عواقب الامور ، فاذا هو ينظر اليها كما قال الشاعر العربى:

أمور يضحك السفهاء منها
ويبكى من عواقبها اللبيب

وليس فى كتب العهد القديم كتاب تكررت فيه الاشارة الى الاستهزاء كما تكررت فى كتاب الامثال ، ولكنه جاء فى بعض الكتب على ندرة واختلاف يسير فى المعنى ، وكادت قصة سارة فى سفر التكوين أن تنم عن ضحك بمعنى الاستغراب والاستعظام ، لانها لا تستهزىء بالبشارة ولكنها تستغربها ولا تطمئن اليها لأول وهلة ، ولهذا يروى الاصحاح الثالث عشر عنها انها ضحكت فى باطنها وانها انكرت الضحك حين سمعت من ضيوف ابراهيم سؤالا فيه شيء من صبغة الملام :

« وقالوا له : أين ساره امرأتك ؟ فقال : ها هى فى الخيمة ، فقال انى أرجع اليك نحو زمان الحياة ــ أى الربيع ــ ويكون لساره امرأتك ابن . وكانت ساره سامعة فى باب الخيمة وهو وراءه ، وكان ابراهيم وساره شيخين متقدمين فى الايام ، وقد انقطع أن يكون لساره عادة كالنساء فضحكت سارة فى باطنها قائلة : أبعد فنائى يكون لى تنعم وسيدى قد شاخ ؟ فقال الرب لابراهيم : لماذا ضحكت سارة قائلة : أفبالحقيقة ألد وأنا قد شخت . هل يستحيل على الرب شيء ؟ فى الميعاد أرجع اليك نحو زمان الحياة ويكون لسارة ابن . فأنكرت سارة قائلة لم أضحك ، لانها خافت ، فقال لا بل ضحكت »

فالمواضع التى ورد فيها الضحك فى كتب العهد القديم

انما كانت تنديدا بخليقة الاستهزاء والسخرية ، أو كانت بمعنى الاستهزاء الذى يرد الاستهزاء على أصحابه ، ومن هذا القبيل ما ينسب الى الاله أو الى عباده الصالحين

وبهذا المعنى نسب الى أيوب حيث جاء فى سفره : « لا ترفض تأديب القدر لأنه هو يجرح ويعصب ، يسحق ويداه تشفيان ، فى ست شدائد ينجيك وفى سبع لا يمسك بسوء ، فى الجوع يفديك من الموت وفى الحرب من حد السيف ، من سوط اللسان . فلا تخاف من الخراب اذا جاء ... تضحك على الخراب والمحل ولا تخشى وحوش الارض »

وهنا يعود أيوب فيهزأ بالخراب والمحل بعد أن كان ضحكة لهما أو ضحكة للهازئين الذين حسبوه فريسة لهما وحسبوا ألا نجاة له من مصابه بهما وبغيرهما من ضروب المحنة والبلاء

لا جرم يقال عن الضحك بمعنى الاستهزاء . كما جاء فى الامثال : « انه فى الضحك يكتئب القلب وعاقبة الفرح حزن » ... أو كما جاء فى الجامعة : « ان الحزن خير من الضحك لانه بكآبة الوجه يصلح القلب »

ولم يذكر الاستهزاء بخير فى كتب العهد القديم الا أن يكون ردا على المستهزئين وعقابا للسخرية والمجون

على ان الضحك قد ورد فى العهد القديم بمعنى السرور مقابلا للحزن مصحوبا بالغناء ، كما جاء فى المزامير بعد رد السبى « اننا ... حينئذ امتلأت أفواهنا ضحكا وألسنتنا ترنما »

ولا يلزم فى هذا المعنى تفسير الضحك بالاسباب التى

أجملناها فيما تقدم ، ولكنه — على هـذا — لا يخلو من الشعور بالنقيض بعد النقيض ، اذ ينتقل المرء من الاسر الى الطلاقة ، فيعبر عن فرحه بالضحك والغناء

فى الانجيل

أما فى العهد الجديد فقد جاء ذكر الضحك فى انجيل لوقا على لسان السيد المسيح حيث يقول وقد رفع عينيه الى تلاميذه :

« ورفع عينيه الى تلاميذه وقال : طوباكم أيها المساكين لأن لكم ملكوت الله . طوباكم أيها الجياع الآن لأنكم تشبعون . طوباكم أيها الباكون الآن لأنكم ستضحكون »

وهنا يأتى الضحك مقابلا للبكاء ولا يخلو من دواعى الضحك فى جميع الاحوال وأهمها تبدل الحال والمقابلة بين النقيضين

▭

وهذه الشواهد من هذه الكتب الدينية التى يقراها المؤمنون بها ويقدسون ما فيها — خير ما يستشهد به على طبيعة الضحك فى حالات متعددة ، لأن هذه الدواعى تبرز فى مواضعها بروزا واضحا بما يقابلها من شعور القداسة ، وتنبئنا عن أناس متباعدين فى الأزمنة والأمكنة والطبائع والاخلاق ، فنعلم أن الانسان انسان فى كل زمان ومكان ، وأن الضحك خاصة انسانية تعم بنى الانسان

الانسانية والفطاهة

أيا ما كان القول فى تعريف الضحك وتعليله ، فمن أصح الاقوال مع جميع التعريفات والتعليلات أن الضحك ــ كما قال برجسون ــ ملكة انسانية من طرفيها ، فلا يضحك الا انسان ، وما من شيء يضحكنا الا أن يكون « انسانيا » فى صورة من صوره ، ولو على سبيل التشبيه

ولنا أن نقول ان الانسان حيوان ضاحك كما نقول ان الانسان حيوان ناطق

أفنعنى بذلك ان كل انسان يضحك بلا استثناء ؟

كلا . الا كما نعنى أن كل انسان ينطق ويفكر ويتكلم بلا استثناء

فهناك خرس لا ينطقون ، وهناك بله لا يفكرون ، وهناك صغار أو همج تتولاهم الغرائز على نحو قريب من سيطرة الغرائز على الاحياء التى لا تساوى البشر فى الخلق أو فى الذكاء

ولكننا مع ذلك نقول ان الانسان حيوان ناطق ونريد بذلك أنه ناطق « بالقوة » على اصطلاح المناطقة ، أو بالاستعداد العام فى أبناء نوعه كما نقول فى عرف المصطلحين ، وكذلك يقال ان الانسان حيوان ضاحك ومنه جماعات بدائية لا تفهم الضحك ولا تدرى موقعه من أعمال الناس ، ولا تميز بين المضحكات وغيرها من الاعمال المخالفة للمألوف ، لأن مخالفة المألوف بين ابنائها ظاهرة نادرة جدا لانطباعهم

على العرف المتوارث الذى لا يخالفونه الا وقعوا فى محظور « المحرمات » ... مع قصورهم عن المقارنة التى تتضح منها النقائض ومواطن الضحك أو الاستغراب

ولعل هـذا العجز عن الضحك فى هذا الطور من أطوار الانسانية معزز لقول القائلين ان الضحك خاصـة انسانية لا يشترك فيها عامة الاحياء . فلا يضحك الانسان وهو ـ بعد ـ قريب من أطوار الحيوانية فى حكم الغريزة وغلبة العادة على التفكير ، واذا رجعنا الى تفسير برجسون فى هذا الصدد فلا محل للمفاجأة هنـا من جريان الانسان على سنة الآلات فى اطراد العمل بغير تفكير ، فان القبائل البدائيـة المغرقة فى الهمجية تجرى كلها على هذه السنة ، ولا يكون فيها مخالفا للمألوف الا الذى يشـذ بالتصرف على خلاف الوتيرة المطردة والنهج المرسوم

أما بعد هذا الطور من الهمجية البدائية فالشعوب جميعا تعرف الضحك وتعرف واضعه وموضوعه بالتجربة العملية وان لم تعرفهما بالتفسير والتقسيم

ونريد بواضع الضحك من يخلقـه بتمثيل المضحكات واختراعها وحكايتها كالفنانين والندماء

ونريد بموضوع الضحك من يكونون أضحوكة الناس بالغفلة أو النقص أو التصرف المتناقض الذى يحول شعور ناظره من وجهة الى وجهة على حين غرة على الاجمال

الأمم الضاحكة

وقد جرت عادة المعـاصرين على وصف بعض الأمم بالفكاهة وتجريد بعضها منهـا أو وصفها بجهلهـا وبطء

الاحساس بها عند المقابلة بينها وبين الأمم « الفكاهية »

والثابت الذى لا شك فيه عن جميع الأمم أنها أخرجت نوابغ الفكاهة فى جميع أجيالها ، وانها فى العصر الحاضر تمثل الفكاهيات وتعرضها على جمهرة من أبنائها ، فلا توجد أمة متحضرة لها تاريخ قديم خلت من نوابغ الفكاهة ومن آثار هؤلاء النوابغ فى الآداب والفنون

ولكننا نرى أن احصاء النوابغ هنا لا يفيدنا كما يفيدنا دليل الأمثال التى يتداولها الناس ويتوارثونها جيلا بعد جيل ، فان آثار النوابغ قد تكون مقصورة عليهم وعلى فئة من قرائهم أو من القادرين على الاستمتاع بفكاهتهم ، ولكن الأمثال الشائعة ترجمان صادق لتفكير الأمة وشعورها وطريقتها فى التعبير عن تجاربها ، وهذه الطريقة تكاد أن تتفق فى جميع الأمم أو تتقارب غاية التقارب فى المضامين والمرامى وان لم تتقارب فى اللفظ والتركيب

وهذه أمثال الأمم بين أيدينا تقترن فيها الحكمة أو تأتى فيها الحكمة من طريق الفكاهة على أسلوب تمتزج فيه السخرية بالتهكم والعطف والدعابة ، وتؤخذ فيه الحكمة مأخذ الجد والمزاح فى وقت واحد ، لأنها تشير الى عواقب الخطل والحماقة اشارة التعقيب بعد مرور المئات من الأمثلة والقرائن والمناسبات ، فهى تتكلم فى أمان بعد فوات الضرر وقبل وقوعه على المقصودين بالنصيحة والتذكير

وعلى سبيل التمثيل بالواقع نستشهد هنا بالأمثال فى أمتين من أمم المشرق وأمتين من أمم المغرب ، يقال عن احداهما أنها أمة ذات فكاهة أو أمة فكاهية ويقال عن الاخرى أنها لا تفطن للفكاهة وأنها اشتهرت بالجهامة وأخذ الامور

كلها بالجد والصراحة التى لا تعرف التورية والتلميح

ففى المشرق أمة الفرس مشهورة بالنكات القديمة والحديثة من عهد الحضارة الكسروية ، وأمة اليابان مشهورة بالكد والدأب والانصباب على العمل والتكليف

وفى المغرب تقابل هاتين الأمتين الأمة الفرنسية فى صفة الفكاهة والامة الالمانية فى صفة الجد والجهامة

وهذه طائفة من أمثلة الامة الفارسية ــ التى يقال عنها انها فرنسا الشرق ــ نتبعها بطائفة من أمثلة الامة اليابانية بغير اختيار بين صفحات الكتب الجامعة لامثال هاتين الامتين

امثال فارسية

الصدق والسكر زميلان
الحب والعطر لا يختبئان
الخادم الجديد أسبق من الغزال
ليس القلب مائدة تبسط لكل ضيف
الذهب والحجر من معدن واحد فى الصندوق
الخائط عريان والاسكاف حاف
الجاهل لا نفع فيه ، لاهو انسان ولاهو حمار
يبيع الجلد قبل صيد الغزال
من دواعى الرثاء أن تنفق الذهب فى الطلاء
لا لزوم للسمك فى بركة بلا ماء
الكلام يلد الماء والامطار تلد الثلوج

ماالفائدة ؟ عند ما استطيع لا أعرف وعندما أعرف لا استطيع !

وهذه متفرقات بعددها ـ اثنى عشر ـ من أمثال الامة اليابانية فى معارض شتى من حكمة الحياة :

الحب لا يميز بين « الميكاد » والفلاح

قد ترى السماء من ثقب ابرة

صدر الانسان أصون الصناديق لاسراره

نصف الناس يضحكون من النصف الآخر ، والنصفان حمقى

اذا تقدمت الحماقة رجعت الحكمة

أعتى العواصف لا تثير الموج فى أعمق الآبار

ما من شجرة تحمل الارز مطبوخا

لا السكير يدرى بعار الخمر ولا المفيق يدرى بسلطانها

لا يرجع الضحك بما أذهبه الغضب

المبالغة فى التحية ازدراء

أجمل الغلال نبت فى حقول الآخرين

اقرض نفسك تعلم لماذا يصيح المقروض

والامة الفرنسية أشهر أمم الغرب بالفكاهة فيما تداولته الألسنة من شهرة الأمم . وهذه متفرقات من أمثالها :

لاتذهب الفضيلة بعيدا الا أن يكون الغرور فى ركابها

حب الذات أبرع المتملقين

المذنب المحبوب سرعان ما تنكشف براءته

خيال بلا علم أجنحة بلا أقدام

الحمقى القدماء أحمق من اخوانهم المحدثين

البساطة المفتعلة تكلف مطلى

لا يقول عن الحظ انه أعمى الا الذى لا يراه

تزيدنا السن حمقا كلما زادتنا حكمة

أصدقاؤنا الأعزاء يقولون كما نقول
الحب مملكة المرأة
للقلب منطق لا يعرفه المنطق
الذى يحسن الحساب لا يثق من حساب

□

وتلى هذه الامثال الفرنسية طائفة فى مثل عددها من الامثال الالمانية ، وهذه هى :

سفينة وتدها من الذهب ترسو فى كل ميناء
ان لم تكن مطرقة فكن سندانا
الكيس الفارغ لا يقف مستقيما
بطن فارغ أشجع من رأس ملآن
الضرير أقل عثرات من البصير
من بدأ بالالف انتهى الى الياء
التخمة أقتل من الجوع
طريق الشحاذ لا ضلال فيه
آدم وحواء أكلا التفاحة ، ونحن نطالب بقائمة الحساب
امرأتان طيبتان فى الدنيا : احداهما ماتت والاخرى مفقودة !
المرأة التى لا يصحبها أحد يصحبها الجميع
يضحك من الندوب من لم يعرف الجراح

□

وهذه اثنى عشر مثلا من كل أمة مشهورة بالفكاهة أو مشهورة بالجهامة . غير اننا لو جعلناها عشرة أضعافها لما تغيرت نسبة الموازنة بينها ، ولا خرجنا منها بتفضيل حاسم لامة على أمة حين نقتبس فكاهة الامم من تجاربها وأمثالها،

فكلها سواء فى مزج الجانب المضحك بالجانب الحكيم من تجارب الحياة المتكررة ، ولاشك أن هذه التجارب وهذه التعبيرات عنها أدل على ملكة الفكاهة الشائعة بين بنى الانسان من الاقوال المتفرقة على ألسنة الآحاد

□

وهناك مقياس آخر للفكاهة الشائعة بين بنى الانسان نرجع فيه الى مواسم الفكاهة التى تعرض لجميع الأمم فى حالات متماثلة ، وهى حالات التنفيس عن الحرج أوحالات التمرد والاحتجاج على البدع الشائعة ، ولاسيما البدع التى حان لها أن تزول أو تبدلت دواعيها بتبدل الاحوال

وشعوب الصقالبة فى أوربة الشرقية وأوربة الوسطى من الشعوب التى اشتهرت بجهل النكتة وخشونة الفطرة وقلة الفطنة لكل معنى فى القول غير معناه الصريح الذى يفهم على وجه واحد ولا يفهم على وجهين كما يغلب على جميع المضحكات

الا أن هذه الشعوب قد رويت عنها نوادر فى موسم الحرج لا تفضلها من نوعها نوادر الشعوب الغربية فى أمثال هذه المواسم

وهذه متفرقات من تلك النوادر مأخوذة من الصحف أو من مجاميع الفكاهة العالمية التى تصدر من حين الى حين وتتمثل فيها أمزجة الامم التى تروى تلك النوادر عنها على غير قصد من جامعيها :

◆ أرادت اذاعة روسية أن تطلع الفلاحين على أجهزة الاذاعة وأن يشترك كل منهم فى ارسال الحديث الى العالم

بكلمة واحدة لا يزيد عليها ، فلما تقدم الفلاح الاول وسئل أن ينادي بالكلمة الوحيدة صاح بملء فيه : النجدة !

● وطاف مفتش من مفتشى الدعاية بين الفلاحين المتذمرين فقال فى بعض القرى للشاكين من قلة الطعام والكساء :

« ماذا تقولون ؟ أتشكون من أبدع المذاهب الاجتماعية من أجل لقمة وخرقة ، فماذا عساكم قائلين لو رأيتم الافريقيين العراة الذين لا يعرفون الخبز ولا الطعام المطبوخ فى مجاهل القارة السوداء ؟ »

فحك أحد السامعين رأسه وقال :

«أظن يا حضرة الرفيق أن هؤلاء سبقونا الى أبدع المذاهب الاجتماعية » !

◆ وساح تاجر مجرى فى روسيا والأقاليم المجاورة لها فجعل يرسل التذاكر البريدية الى اصحابه كلما نزل بعاصمة من العواصم ، فكتب فى التذكرة الاولى : تحيات من موسكو الحرة ، وكتب فى التذكرة الثانية : تحيات من وارسو الحرة ، وكتب فى التذكرة الثالثة : تحيات من براغ الحرة . ثم صمت شهرا وجاءت الى أصدقائه من باريس تذكرة يقول فيها هذه المرة : تحيات من الحر رابينوفتش !

واقترب غريب فى بودابست من جندى الشرطة ليسأله عن الساعة ، فنظر الشرطى الى النوافذ وقال له : « انها الساعة الثامنة وثلاثون دقيقة بالضبط »

فعجب الزائر الغريب وفاتحه بعجبه قائلا : « كيف عرفتها وأنت لم تنظر فى ساعتك ؟ »

قال الشرطى : « هذه النوافذ المغلقة فى هذه اللحظة دليل على ميعاد الاذاعة الاجنبية » !

● واجتمع ثلاثة مساجين فى أحد المعسكرات فقال أولهم همسا : أنا هنا لاننى متهم بمشايعة راداك ، وقال الثانى : انا هنا لاننى متهم بتأييد راداك ، وقال الثالث : انا هنا لاننى راداك ! (١)

وقد نقلت عن الالمان فى أيام هتلر حكايات يتداولها الشعب الالمانى من قبيل التمرد والاحتجاج على شدة الحجر أو على البدع الاجتماعية ، ونختار حكاية من كل منهما تنبىء عن سائرها

فمن حكايات التمرد على الحجر وسوء الحال أن رجلا ضاقت به الدنيا فعول على الانتحار واشترى حبلا ليشنق نفسه فانقطع الحبل ونجا الرجل من الموت ، لان الحبل « ارساتز » ، او تقليد صناعى .. فاشترى سما من صيدلية وضاعف المقدار فلم يمت لأن السم « ارساتز » اى تقليد صناعى للمواد التى تصنع منها السموم .. واشترى مسدسا واطلقه على نفسه فلم يمت لان المسدس والرصاص كله « ارساتز » لا يميت .. فلما يئس من الموت عدل عن الانتحار ، وأجمع عزيمته على البقاء واحتمال الحياة على علاتها، وذهب الى مطعم اكل فيه وشرب وأفرط فى أكل اللحوم وشرب الجعة تعويضا لما فاته من متعة الحياة فى اليومين السابقين

---

(1) Laughter incoporated.



جحا الجائع للفران : ألك كل هـذه الرغفان .. لماذا لا تأكلها يا أحمق ؟!

فمات فى هذه المرة ، لان الطعام والشراب « ارساتز » !
وشاع بين الفتيات زى الملابس القصــيرة التى تكشف عن الصدور والسواعد والسيقان ، وعاد أحد الازواج الى بيته فى بعض تلك الايام فاستقبلته زوجته متهللة وقالت له : أتدرى يا فلان ! انهم يبيعون الفساتين بالتقسيط على عشرة أقساط ، وقد انتهزت الفرصة واشتريت فســتانا يوفر عليك سداد ثمنه الكبير دفعة واحدة

فنظر الزوج الى امرأته التى كادت أن تبدو أمامه بغير كساء ، وقال وهو يظهر الموافقة على مضض :

ــ أظن ان هذا هو القسط الاول من الفستان !

النوادر القرقوشيــة

ان الاستعداد لتأليف الفكاهة التى تنفس بها الامم عن صدورها فى أوقات الحرج يكاد يتساوى بين جميع الامم ومنها ــ او فى مقدمتها ــ الامم التى لم تشتهر بالنكتــة واشتهرت على نقيض ذلك بأنها تجهلها ولا تحسنها

ونقول أن هذه الامم فى مقدمة الامم التى تؤلف النكات فى هذا الغرض لانها فى الغالب هى الامم التى تبتلى بالحرج وتعز عليها حرية القول ، فلا يوجد فى العصر الحاضر نظير لهذه النوادر فى الامم التى تملك حرية النقد وتجهر بآرائها فى حكومتها وحكامها ، ولا محل للمقارنة بين الشــــعوب الاوربية فى هذا الباب من أبواب الفكاهة لانها لا تتساوى فى ظروفه ودواعيه ، وانما تستطاع المقارنة بين النــكات المتقدمة والنكات التى شاعت فى مصر على عهد «قره‌قوش» ودونها « ابن مماتى » فى كتابه المسمى « الفاشوش فى حكم

قراقوش » وليست كلها من تأليفه وابتكاره ، بل هى مما يشيع مجهول المصدر ثم يقاس عليه ويظل فى طي الكتمان الى حين

واحدى هذه النوادر أو النكات قد سبق لها نظير فى النوادر التى استشهد بها فرويد وهى نادرة الحداد المحكوم عليه بالموت

قيل أن غلاما لقرهقوش قتل نفسا فحكم عليه بالشنق ، ثم تشفع لديه الشفعاء وقالوا له : انه حدادك ينعل لك الفرس ويخدمك، فان شنقته لم تجد غيره، فنظر قرهقوش ناحية الباب ووقعت عينه على رجل قفاص فقال : هذا القفاص لاحاجة بنا اليه ، فاشنقوه فى مكان الركبدار ، وهى وظيفة الغلام الحداد عنده !

وعلى هذا المثال تجرى النوادر «القرقوشية» التى أثبتها « ابن مماتى » فى كتابه أو تناقلها الرواة على لسان غيره

● ومنها نادرة الرجل الذى أوثقه الناس وحملوه حيا ليدفنوه وهو يصيح فى النعش مستغيثا بقرهقوش ، فلما سمعه قرهقوش ترك المشيعين يمضون به وقال له : ويحك! لا اصدقك وأكذب مائة من ورائك !

● وقيل ان قرهقوش نشر قميصه فوقع القميص من الحبل ، فتصدق بالف درهم وقال : لو كنت البسه ساعة وقوعه لانكسرت

● وقيل أن جنديا نزل فى مركب، وكان به فلاح وزوجته وهى حامل فى سبعة أشهر . فصدمها الجندى وأسقط حملها فأخذ زوجها بتلابيبه وقاده الى قرهقوش ، فقضى

على الجندى أن يأخذ الزوجة ويطعمها ويكسوها ولايعيدها الى زوجها الا وهى حامل فى سبعة أشهر !!

● وشكا اليه مدين أنه يجمع دينه ويذهب بهالىصاحب الدين فلا يجده ، ثم يأتى هذا فيطالبه ويلح عليه وهو خالى الوفاض لا يملك السداد ، فأمر قرهقوش بحبس صاحب الدين حتى يعرف المدين موضعه متى جمع المال المطلوب منه ، ولا يضيع الدين على صاحبه بين البحث والتأجيل

◆ وكان لقرهقوش باز يصيد به فطارالباز ولم يعد اليه ، فأمر باغلاق أبواب المدينة ليرجع الباز اليه اذا أغلقت جميع الابواب !

● وشكا اليه الفلاحونبردا أصاب القطن وأتلفهوالتمسوا منه أن يعفيهم من الضريبة ذلك العام ، فأبى أن يعفيهم لان القطن انما أصيب بالبرد لاهمالهم وقلة درايتهم ، ولوزرعوا معه صوفا لما أصابه التلف من برد الشتاء !

ومن باب هذه الحكايات عن قره قوش حكايات كثيرة يتناقلها المصريون عن الحكم التركى فى عطر المماليك وبعد عصرهم الى أيام الخديو اسماعيل

● ومنها أنحاكما تعود أن يقترض مالامن بعضالصيارفة ويكتب له وثيقة بها ثم يأمره بابتلاعها اذا جاءه فى الموعد مطالبا بحقه . ولا يزال يقترض ويأبى السداد على هذا النحو ويضيف الدين الجديد الى الديون القديمة حتىيئس الصيرفى من سداد جميع الديون ، فلما استدعى الصيرفى بعد ذلك جاءه ومعه ورقة شفافة ورجاه أن يكتب الوثيقة

عليها ... ليسهل عليه ابتلاعها فى موعد السداد

● ومنها أن واليا كان يجمع الضرائب ولا يقبل عذرا فى تأخيرها ، ولا يزال يقول لمن يعتذر بقلة المال :

ـ ماذا ؟ أليس لديك أربعون ريالا ..؟

وعلم القوم من تكرار هذه « الاربعين » أن الرجل يملك أربعين ريالا فلا يصدق أن أحدا لا يملكها مثله ، ونقبوا عن دفائنه حتى عثروا بالثروة المجهولة ، أو المعلومة ، فلم يضرب الوالى بعدها أحدا يماطل فى الضريبة ، وجعل يقول لكل معتذر :

ـ من أين لك أربعون ريالا يامسكين ؟.. أنا لا أملك ريالا واحدا من الاربعين

● ومنها أن واليا كان يصلى فى أخريات أيامه ويتبع الصلاة بالدعاء والنحيب ويسأل الله أن يكفر له ذنوبه لأنه قتل أربعة

وسمعه زميل له فأدهشه أن يستعظم هذا الذنب اليسير وينحب هذا النحيب من أجل أربعة قتلهم وهم فى حسابه عدد غير كبير ، فقال له كأنه يؤنبه :

ـ ألم تقتل فى حياتك غير أربعة ياأغا ؟

قال : « لا ياصاحبى .. أربعة من الترك ، أما الفلاحون فلا عداد لهم فيما أذكر » !

وأشباه هذه النوادر لو أحصيت لاجتمع منها مجلدات تربى على العشرات من أمثال كتاب الفاشوش عن حكم قره قوش ، وهى جميعا من تأليف أمة مشهورة من قديم الزمن « بالقفش » والنكتة السريعة ، فاذا قوبلت هذه النوادر بنوادر الأمم التى لم تشتهر بالفكاهة فى أوربا

الحديثة ، ظهر من المقابلة أن الاستعداد متقارب أو متساو بين جميع الأمم ، وانما تزيد النكتة المصرية بطابع خاص بها وهو الجمع بين التنفيس عن الحرج وبين وصف الحاكمين بالغفلة والبلاهة ، وسبب هذا الفارق أيضا راجع الى الظروف الاجتماعية لا الى طبيعة الضحك فى النفس الانسانية ، فان الحاكم الذى تصيبه النكتة المصرية من غير أهل البلد فلاضير من اتهامه بالغفلة والبلاهة واعتزاز المحكومين على الحاكمين بالفطنة والدراية ، ولكن هذا الاعتزاز فى أوربا الحديثة يصيب المحكومين كما يصيب الحاكمين لأنهم من عنصر واحد ، فلا حاجة فى النكتة هنا الى اكثر من التنفيس عن الحرج وتمثيل الحجر على الألسنة والأقلام

فكاهات عهود التحول

وأتم من هذه المواسم الفكاهية التى تنفس بها الأمم عن صدورها فكاهة أخرى أعم وأبقى أثرا لأنها تشمل العهود المتحولة فى حضارة واسعة تحيط بأمم كثيرة ، وتأتى هذه الفكاهة فى أوانها حين تؤذن العهود بالتحول لتزعزع أركانها وزوال مقوماتها ، فينبرى لها نابغ ملهم فى فن النقد الفكاهى يجسمها فى « شخصية » مخترعة يجعلها هدفا للسخرية والتسخيف أو يعمد الى شخصية خيالية قائمة يلبسها ذلك الثوب ويودعها بقايا النفاق والتكلف والتقاليد الخاوية التى تتخلف بعد أجيال عدة فى أعقاب العهود الدائلة التى آذنت شمسها بالأفول

من هذه العهود المتحولة عهد الفتك واشباع البطون والشهوات فى القرن الخامس عشر للميلاد ، وقد تصدى له

الاديب الفرنسى رابليه Rabelais (١٤٩٤ – ١٥٥٣) فمثل ملوكه وابطاله فى شخصيتين خالدتين احداهما شخصية جارجنتوا Gargantua الذى يلتهم الآدميين والأنعام نهما ولا يشبع ولا يكف عن الطعام ، والأخرى شخصيةبكروشول Picrochole الذى ضربت نفسه العدوان وهانت عليه النفس البشرية يزهقها لقليل من المال أو لنزوة من نزوات الساعة أو لغير شىء غير العتو والطغيان

وليس أدل من اصطحاب هذه المساوىء فى العهودالدائلة من آيات القرآن الكريم فى سورة الفجر حيث تنعى دول التبابعة والفراعنة والجبابرة جميعا فى أمثال هذه العهود :

« ألم تر كيف فعل ربك بعاد ارم ذات العماد التى لم يخلق مثلها فى البلاد وثمود الذين جابوا الصخر بالواد وفرعون ذى الأوتاد الذين طغوا فى البلاد فأكثروا فيها الفساد فصب عليهم ربك سوط عذاب ان ربك لبالمرصاد » الى قوله تعالى : « بل لاتكرمون اليتيم ولا تحضون على طعام المسكين وتأكلون التراث أكلا لما وتحبون المال حبا جما »

وهذه المفاسد التى جمعتها هذه الآيات هى بعينها مفاسد العهد الذى يمثله جارجنتوا فى النهم ويمثله بكروشول فى الفتك والعدوان ، وكلاهما بعد ذلك باغ نهم على زيادة البغى فى أحدهما وزيادة النهم فى الآخر

ومن العهود المتحولة عهد الفروسية فى القرن السادس عشر بين نبلاء الأسبان على الخصوص ، فان هذا العهد قد شاخ وشاه حتى بطلت فيه النخوة والحماسة فأصبحت

أكذوبة خاوية يتعلق المخدوعون بظواهرها أو الجامدون على بقاياها ، وقد تصدى لهذا العهد كاتب أسبانى من طراز رابليه هو سرفانتيز Cervantes صاحب كتاب دون كيشوت الذى تضمن من أمثال العرب وكلماتهم المأثورة مايكاد يسلكه فى عداد الكتب العربية ، ولم يكن ذلك عبثا أو لغوا بل كان من تمام التعبير عن العهد الآفل لأنه وافق شيوع التقاليد العربية بين الأسبان وأمم القارة الغربية

ويعاصر هذه العهود أو يسبقها بقليل عهد الألاعيب « الشريرة » الذى فشا بين الولايات الألمانية على أيام النبلاء الذين قيل فيهم انهم نصف أمراء ونصف قطاع طريق ، وتمثلت الاعيب هذا العهد فى شخصية القروى اولنسبيجل Eulenspiegel الذى كان كالمسخ المشوه فى تصوره لأولئك العابثين المحتالين الأشرار ، ويقال انه عاش فى برنزويك وان توماس مورنر Murner (١٤٧٥ — ١٥٣٠) الذى جمع نوادره بعد ذيوعها نحو قرن من الزمان ، ولم تثبت نسبة الكتاب اليه ولكن ثبت ذيوع النوادر قبل ذلك بغير خلاف

ثم جاء الكاتب البلجيكى شارل دى كوستيه Charles de Coster (١٨٢٧ — ١٨٧٩) فاستعار هذه الشخصية وأودعها روحا فلمنكية مرحة كادت ان تجعلها نموذجا للطبيعة الفلمنكية فى سذاجتها التى آذنت بالتحول عند نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين

وخاتمة المطاف فى هذه المواسم الفكاهية كتاب « اعاجيب البارون منشهاوزن » الذى ألفه الكاتب الألمانى رودلف اريك راسب Raspe وادار حوادثه أو نوادره على شخصية واقعية عاش صاحبها فى القرن السابع عشر وعاد بعد خدمته

فى الجيش الروسى يصدع الأسماع بأخبار البطولة التى يرويها عن نفسه وخوارق الشجاعة والدهاء التى امتاز بهـا فى وقائع الحرب والسفارة بين الملوك والامراء ، ومنهم أمراء المشرق فى الآستانة والقاهرة

تلك الشخصية الواقعية هى شخصية كارل فردريك منشهاوزن (١٧٢٠ — ١٧٩٧) نموذج المفاخر المدعاة بين عصر السيف وعصر البندقية والمدفع ، واحدى أعاجيبه انه نسى النار التى يشعل بها البارود فأوقد زناد البندقية بضربة على عينه أطارت منها الشرر فانطلق الرصاص ... واحدى هذه الأعاجيب أنه أراد الخروج من القلعة المحصورة فركب القذيفة التى أطلقت عليها فعادت به أدراجها الى حيث أراد ؛ وكانت أعاجيب منشهاوزن هذا خاتمة العهد الذى راجت فيه اباطيل البطولة بعد عصر الفروسية وقبل عصر السلاح الحديث ، وراجت فيه على الجملة أخبار السياحات والرحلات مما يصدقه العقل أو لايقبل التصديق

وهذه فكاهات ظهرت لمناسبات متشابهة بين فرنسا واسبانيا وألمانيا وبلجيكا وتقبلتها الأمم من الغربيين والشرقيين حيث تداولتها أيدى القراء بمختلف اللغات ، ومن هذه الأمم من اشتهرت بالفكاهة ومنها من اشتهرت بجهلهـا وبطء الالتفات اليها ، ولا يسع الناقد عند المفاضلة أن يرجح النكتة فى احداها على النكتة فى سواها ، فربما كان بعض النكات فى أعاجيب منشهاوزن أبرع من نكات دون كيشوت ، وربما كانت النكتة الأسبانية أحيانا أبرع من النكتة الألمانية ، وعامتها من نسق واحد وطبقة واحدة تؤدى رسالتها فى مناسباتها وتسجل الحقيقة التى أسفرت عنها المقابلة بين

الفكاهات القومية ودلت على ان الضحك ـ كالمنطق ـ مزية انسانية توجد بالقوة كما توجد بالفعل حيث يوجد الانسان ، وأن اختلافها انما هو اختلاف بين الظروف والبيئات قبل ان يكون اختلافا بين الطبائع والأصول

▭

على أن طبائع الانسان العامة لاتمحوالفوارق بين المجتمعات فى مواقعها المتباينة ، ولا تمحو الفوارق بين المجتمع الواحد فى الأزمنة المختلفة والأحوال المتناقضة ، وليس من الطبيعى أن تكون الأمة الوادعة كالأمة الكادحة ، أو الامة الغنية كالامة الفقيرة ، أو الأمة التى طال عهدها بالحضارة ومؤنساتها كالأمة التى تحضرت بعد وحشة أو مرت بها الحضارة ناشئة متقطعة ، ولا تتشابه فى الجد ولا الفكاهة أمة تمرست بالمظالم والشدائد وأمة لم تتمرس بها الا عرضا فى الآونة بعد الأخرى

فمهما تتفق طبائع الانسان فستبقى بعد ذلك بقية للصبغة القومية فى الجد والفكاهة ، وفى العلم والعمل ، وفى التفكير والذوق ، وفى الضرورات والكماليات

فوارق الأمم فى الفكاهة

ونحن فى هذه الرسالة نجمل القول فى اصول الفكاهة لنستطرد منها الى فكاهة جحا أو الفكاهة المنسوبة اليه فى الأمم التى عرفته وتمثلت بحكاياته ، وهى الأمة العربية والأمة الفارسية ، والأمة التركية . وكادت هذه الامة ـ أى الامة التركية ـ أن تستأثر به فى معظم نوادره حتى قيل أن جحا المشهور اليوم انما هو جحا جديد من مخلوقات البديهة التركية تنقطع الصلة بينه وبين جحا القديم الذى عرفه

العرب فى أمثالهم ورجع به التاريخ الى صدر الاسلام ، فلا يجمع بينهما غير التسمية باسم واحد

وأيا كان منشأه من الأمة التركية فهناك « جحا » تنسب اليه الحكايات فى اللغة العربية واللغة الفارسية ، فاذا عنينا بفوارق الأمم فى الفكاهة والمضحكات فليس من غرضنا فى هذه الرسالة أن نستقصى الفوارق فى جميع الأمم ولا حاجة بنا الى اكثر من تمييز الفوارق فى خصائص الفكاهة بين السليقة العربية والسليقة الفارسية والسليقة التركية ، فربما اعانت هذه الفوارق على اسناد الحكايات الى كل امة من هذه الأمم حسب سليقتها الغالبة عليها ، ولا يكون هذا الاسناد بعد كل محاولة فى ميسورنا الآن الا على سبيل الترجيح والتقريب دون الجزم والتوكيد . ونحن فى هذا كمن يقول أن فلانا عربى لأنه أسمر فيقول شيئا يستحق أن يقال لأنه لايستحق ان يهمل ، ثم لايجاوز هذا الحد الى توكيد النسبة مع احتمال وجود البشرة السمراء أو المسمرة بين الشعوب الشقراء ، واحتمال وجود البشرة البيضاء بين العرب وغيرهم من الشعوب السمراء

وعلى هذا النهج من التغليب والترجيح نستطيع أن نميز سليقة الأمة فى عامة شؤونها ثم غير السليقة التى تنتظر منها فى معارض الفكاهة ، لأن الصورة الفكاهية نسخة من الصورة المحسوسة مبالغ فيها على مثال المبالغة فى هذا الضرب من التصوير المشهور فى اللغات الأوربية باسم الكاريكاتور ... وقد وجد هذا الكاريكاتور بالتعبير اللغوى فى جميع الأمم قبل ان يوجد بالخطوط والرسوم

فمن الوصف الصادق لسليقة الأمة العربية ان نقول انها

أمة شعرية منطقية ، ومن الوصف الصادق لسليقة الأمة الفارسية ان نقول انها أمة صوفية دبلوماسية ، ومن الوصف الصادق لسليقة الامة التركية ان نقول انهـا امة عملية واقعية

والى أين تنتهى المبالغة « الكاريكاتورية » بالخيال والمنطق؟ تنتهى الى الوهم والقيـاس مع الفارق أو مع الفوارق الـكثيرة

أما المبالغة الكاريكاتورية فى السليقة الصوفية فقد تنتهى الى المحال والمحاولة ، وأما هذه المبالغة فى السليقة العمليـة الواقعية فقد تنتهى الى تحصيل الحاصل والحذلقة بما هو مفهوم مستغن عن التعريف

وقد أعطانا الشاعر التركى المستعرب ـ ابن سودون اليشبغاوى من أدباء القرن التاسع بمصر والشام ـ مثلا للسليقة التركية لانظير له فيما نعلم من نظم شعراء العرب والترك ولا شعراء الأمم الغربية ، لأن أولئك الشعراء يعطوننا المثل فنأخذه من طريق التحليل والاستنتاج ، ولكن ابن سودون يعطينا المثل على غير قصد منه بمنظوماته التى تعدو تحصيل الحاصل ويرسم لنا « الكاريكاتور » بيده ولا يدع لنا ان نرسمه ونستوحى ملامحه من خلال الألفاظ ومعانيها

ونكتفى هنا بقصيدتين من شعره الذى اراد به الاضحاك بمحاكاة ادعياء المعرفة الذين لايزيدون فى حكمتهم على تعريف المعروف

واحدى القصيدتين على قافية الألف المقصورة وهى :

اذا ما الفتى فى الناس بالعقل قد سما
تيقن أن الأرض من فوقهـــا الســـما
وأن السما من تحتهـــا الارض لم تزل
وبينهما أشـــياء ان ظهـــرت ترى
وانى ســـأبدى بعض ما قـــد علمته
لتعلم أنى من ذوى العـــلم والحجى
فمن ذاك أن النـــاس من نســـل آدم
ومنهم أبو سودون أيضـــا ، وان قضى
وان أبى زوج لامى ، واننى
أنا ابنهـــا والنـــاس هم يعرفون ذا
وكم عجب عنـــدى بمصر وغيرهـــا
فمصر بهـــا نيل على الطين قد جـرى
وفى نيلهـــــا من نام بالليـــل بله
وليست تبل الشـمس من نام بالضحى
بها الفجـــر قبل الشمس يظهـــر دائما
بهـــا الظهر قبل العصر : قبل بلا مرا
وبالشـــام أقـــوام اذا ما رأيتهم
ترى ظهـــر كل منهم وهـــو من ورا
بهـــا البـدر حال الغيم يخفى ضياؤه
بها الشمس حال الصحو يبدو لهـا ضيا
ويسخن فيها المـــاء فى الصيف دائمـا
ويبرد فيهـا المـــاء فى زمن الشـــتا
وفى الصـــين صينى اذا ما طرقتـــه
يطن كطنينى طرقت ســـوا ســـوا

بها يضحك الانســـان أوقات فـــرحه
ويبكى زمان الحزن فيهـــا اذا ابتلى
وفيهـا رجال هم خلاف نســـائهم
لأنهـــم تبـــــدو بأوجههم لحى

والقصيدة الأخرى البائية التى يقول فيها :

عجب عجب عجب عجب
بقـر تمشى ولهـــا ذنب
ولهـــا فى بزبزهـــا لبن
يبدو للنـــاس اذا حلبـوا
لاتغضب يوما ان شـــتمت
والناس اذا شـتموا غضبوا
من اعجب ما فى مصر يرى
الـكرم يرى فيـــه رطب
أوسيم بهـا البرسيم كذا
فى الجيزة قـد زرع القصب
زهر الكتان مع البلســــا
ن همـــا لونان ولا كـذب
كيهـــود فى دير خلطـــوا
بنصارى حركهم طــــرب
وقناطر أم الخمس بهـــا
ماء فى الحفـــرة ينسرب
والمركب مع ما قد وسقت
فى البحـــر بطرف تنسـحب
والخيمة قال النـــاس اذا
نصبت فالحبل لهـــا طنب

البيض اذا جاعـــوا أكلوا
والسمر اذا عطشـوا شربوا
النـــاقة لا منقـــار لهـا
والوزة ليس لهـــا قتب
الـــوز يبيض بثقبتـــه
وينـــام عليـــه فينثقب
والوز الفقس بأرض بلقس
كـذا فى المقس لـه زغب
لابد لهـــذا من ســـبب
حزر . فـزر . ما السبب ؟

وستمر بنا فيما يلى ألوان من النوادر المنسوبة الى جحا يحسب بعضها من نوادر تحصيل الحاصل ، ويحسب بعضها من نوادر الوهم أو القياس مع الفارق ، وبعضها من نوادر المحال والمغالطة . ويساعدنا هذا التقسيم على الرجوع بها الى مصادرها مع التحفظ والتماس القرائن الأخرى من التاريخ والمناسبات والشواهد النفسية أو الاجتماعية

ونبدأ قبل البدء بعرض النوادر وتقسيمها فنقول أنه تقريب لانرجو أن نبلغ به مبلغ الجزم والتوكيد ، ولكننا لانرى من أمانة البحث ان يهمل أو يصرف عنه النظر ، فلعله بعد كل مايقال عن أحكامه « التقريبية » أصدق الموازين الميسرة لنا فى هذا المبحث وماجرى مجراه من الروايات المشاعة بلا اسناد تبلغ مبلغ الجزم والتوكيد

جحا .. ونوادره

جحا ... غير واحد

شيء واحد ثابت كل الثبوت فى أمر جحا

ذلك الشيء الثابت ـ قطعا ـ أنه لم يكن جحا واحدا ولا يمكن أن يكونه ، لأن النوادر التى تنسب الى جحا لاتصدر من شخص واحد ، ولاتزال دواعى اليقين باستحالة هذه النسبة واضحة فى كل قرينة وكل رواية يجوزالاعتماد عليها فى تحرى الوقائع ومن تنسب اليه

يستحيل أن تصدر هذه النوادر عن شخص واحد لأن بعضها يتحدث عن أناس فى صدر الاسلام ، وبعضها يتحدث عن أناس فى عصر المنصور العباسى أو عصر تيمور لنك أو مابعده من العصور بأجيال

ويستحيل أن تصدر عن شخص واحد لاختلاف الشخصيات التى تصورها فى مجموعها ، فمنها مايكون التغفيل فيه من جحا ، ومنها مايكون فيه جحا صاحب الذكاء النادر والطبع الساخر الذى يكشف عن الغفلة ويتندر على البلاهة ، ومن هذه الشخصيات من تتمثل فيه الحماقة بغير مراء ، ومنها من يتحامق ويبدو فى كلامه وتمثيله انه يتكلف مايعمل وما يقول استهزاء منه بمن يدعون الحكمة والذكاء

ويستحيل أن تصدر هذه النوادر عن شخصية واحدة لتباعد البيئات التى تروى عنها سواء فى الامكنة أو العادات

والأخلاق ، فقد يروى بعضها عن فارس ويروى بعضها عن بغداد أو الحجاز أو آسيا الصغرى أو غيرها من البلدان الشرقية

بل ربما قيل عن جحا انه نصر الدين التركى وقيل عنه أنه أبو الغصن العربى الفزارى ، وقيل عنه انه من النـوكى الهاكمين كما يقال عنه أنه من أصحاب الحالات والكرامات من المتسترين بالولاية وهم يجهرون بالهذر والبلاهة

ويستحيل أن تصدر هذه النوادر عن « جحا » وحده كائنا ما كان ، لانها تنسب ـ بعينها ـ الى المجانين من أمثال هبنقة وبهلول أو الى الاذكياء من أمثال أبى نواس وابى العيناء

ويزاد على هذه الاحالات جميعا ان طبيعة الفكاهة تختلف بين تحصيل الحاصل والقياس مع الفارق والمحاولة والمحال ، مما يجوز ان يتفق عرضا فى نادرة أو قليل من النوادر ، ولكنه لايتفق فى العشرات والمئات

ونحن قد نقرأ عن جحا فى كتاب واحد فنفهم انه شخص موجود او قابل للوجود ، لأنه متناسق الأخبار مطبوع فى تفكيره وتعبيره على غرار واحد . ثم نقرأ عنه فى كتاب آخر فنرى صاحب الكتاب مضطرا الى تسويغ نوادره المتناقضة باسنادها الى المختلقين والمنتحلين ، أو بافتراء المفترين على « جحا » للنكاية والتشهير

يقول الميدانى صاحب كتاب الأمثال : « هو رجل من فزارة كان يكنى أبا الغصن ، ومن حمقه أن عيسى بن موسى الهاشمى مر به وهو يحفر بظهر الكوفة موضعا فقال له : مالك يا أبا الغصن ؟ قال : انى قد دفنت بهذه الصحـراء

دراهم ولست اهتدى الى مكانها . فقال عيسى : كان ينبغى أن تجعل عليها علامة . قال : قد فعلت . قال : ماذا ؟ قال : سحابة فى السماء كانت تظلها ولست أرى العلامة ...

« ومن حمقه أيضا أنه خرج من منزله يوما بغلس فعثر فى دهليز منزله بقتيل فضجر به وجره الى بئر منزله فألقاه فيها . غير أن أباه أخرجه وغيبه وخنق كبشا حتى قتله وألقاه فى البئر . ثم ان أهل القتيل طافوا فى سكة الكوفة يبحثون عنه فتلقاهم جحا فقال : فى دارنا رجل مقتول ، فانظروا أهو صاحبكم ؟ فعدلوا الى منزله وأنزلوه فى البئر ، فلما رأى الكبش ناداهم وقال : ياهؤلاء ! هل كان لصاحبكم قرن ؟ فضحكوا ومروا

« ومن حمقه أن أبا مسلم صاحب الدولة لما ورد الكوفة قال لمن حوله : أيكم يعرف جحا فيدعوه الى . فقال يقطين : انا ... ودعاه ، فلما دخل لم يكن فى المجلس غير أبى مسلم ويقطين ، فقال : يايقطين ! أيكما أبو مسلم ؟ »

ثم يقول الميدانى بعد ذلك : « وجحا اسم لاينصرف لأنه معدول من جاح مثل عمر من عامر . يقال جحا يجحو جحوا اذا رمى ، ويقال : حيا الله جحولك اى وجهك »

☐

وجحا هنا ، كما وصفه الميدانى ، شخصية مفهومة متناسقة ، لعل الخبر الذى جاء عن أبيه فى خلال الكلام عنه يفسر بالوراثة مافيه من خلة الحماقة . لأن جحا لم يصنع شيئا يزيد الشبهة فى أمر القتيل بنقله من الدهليز الى البئر ، وأباه لم يصنع شيئا يزيل الشبهة بوضع الكبش فى مكانه ،

وكان لكل منهما مندوحة عما صنع لولا الحماقة فى الأب وفتاه

أو لعل الخبر عن اشتهار اسم جحا حتى سمع به أبو مسلم يفسر لنا وضع الروايات عنه بين الفرس أو اعتباره بينهم علما على البلاهة والفهاهة يسندون اليه ماشابه نوادره من الفكاهات الفارسية ، فليس فى خبر جحا هنا غرابة بما نسب اليه أو نسب الى غيره ، ولك أن تقبل هذا الخبر دون أن تحتاج بعده الى توفيق أو تأويل

ولكنك تقرأ عن جحا فى غير كتاب الأمثال فلا ترى كتابا واحدا يستغنى عن شيء من التوفيق والتأويل ، لغرابة الأخبار التى ترامت عنه وتلقفهـا الرواة فحاروا كيف يضعونها فى موضعها بين أخبارهم ومن تروى عنهم تلك الأخبار

ومن الاطالة على غير طائل فى غرضنا من هذه الرسالة أن نحيط بكل ماوصف به جحا فى كتب الأدب العربى فان المحصل منه كله انه تناقض لايستقر على قرار ، ولكننا نجتزىء بما كتبه ابن الجوزى اذ يقول فى أخبار الحمقى والمغفلين انه — أى جحا — « روى عنه مايدل على فطنة وذكاء ، الا ان الغالب عليه التغفيل ، وقد قيل ان بعض من كان يعاديه وضع له حكايات . وعن مكى بن ابراهيم : رأيت جحا رجلا كيسا ظريفا ، وهذا الذى يقال عنه مكذوب عليه ، وكان له جيران يمازحهم ويمازحونه فوضعوا عليه »

وهكذا يسمع عن الرجل مايدل على ذكاء ومايدل على تغفيل ويوفقون بين الذكاء والتغفيل فيحسبون ان نوادر التغفيل من وضع المفترين عليه ، وغير ابن الجوزى أناس

يحسبون أنه من أصحاب الحالات والكرامات يتكلم ولاينبغى أن يؤخذ عليه كلامه بظاهره لأنه يتعمد فيه اخفاء الأسرار الالهية بهذه المضحكات والخزعبلات ، وقد حسبه بعضهم من التابعين رواة الحديث ثم شكوا فى حقيقة اسمه كما شكوا فى حقيقة مسماه

وأما بعد ظهور جحا التركى ، الملقب بخوجة نصر الدين ، فالحكايات عنه تنسب الى رجل واحد وهى مما يمكن ان ينسب الى عشرة متباعدين فى الزمان والمكان والعقل والمزاج، وبعض هذه الحكايات متأخر الى مابعد اختراع الساعات التى تحمل فى الجيب وبعضها متقدم الى أيام الصحابة والتابعين

نوادر له ولغيره

ومما لاريب فيه ــ قطعا ــ ان رجلا واحدا لايمكن ان تصدر عنه جميع هذه الحكايات ولو كانت متناسقة متساوقة تدل على عقل واحد ومزاج واحد وتتحدث عن فترة واحدة وبيئة واحدة . فاننا اذا فرضنا وجود هذا الرجل وجب الا يكون له عمل الا أن يأتى بتلك النوادر والأضاحيك ووجب ألا يكون لعشرائه وأصحابه عمل غير النقل عنه واثبات هذه الأحاديث المنقولة ، وهو مالم يحدث فى حياة الهداة الأعلام الذين تنقل عنهم الاشارات فضلا عن الكلمات

فالعجب أن تكون حكايات جحا من رجل واحد ، ولكنه لاعجب على الاطلاق فى توارد هذه الحكايات وتلاقيها من أبعد المصادر ، ومهما يخطر على بالنا من غرابة ذلك فالواقع يزيل كل غرابة فيه ويرينا أن هذا الفيض من الحكايات ــ

وما هو أغرب منه ـ يتلاقى من اقاصى أوربا الى اقاصى افريقيا الى أقاصى القارة الاسيوية على امتدادها

ومثال ذلك قصة تروى عن جحا وعن أبى نواس وعن رابليه الفرنسي الذى تقدمت الاشارة اليه ، وفحواها أن تاجرا بخيلا رأى طارقا فقيرا يتبلغ بالخبز القفار على رائحة شوائه أو طبيخه فطالبه بثمن هذه الرائحة ، وحار الفقير فى أمره حتى انقذه حلال المشكلات بحل من قبيل دعواه ، لأنه رن أمامه قطعا من الدراهم وقال له خذ رنين هـذه الدراهم ثمنا لرائحة شوائك

ومن الذى روى هذه النادرة عن أبى نواس ؟

لم يروها كتاب بغداد أو دمشق أو القاهرة ، بل رواها الكاتب الانجليزى انجرام Ingrams فى كتابه عن أبى نواس وأساطيره كما سمعها باللغة السواحلية واللغة العربية فى افريقية الشرقية ، وهذه ترجمة القصة كما نقلناها فى كتابنا عن أبى نواس . قال انجرام ماترجمته بحرفه على وجه التقريب :

« ان تاجرا ذبح معزة ومر به مسكين فجلس الى جانب القدر لعله يستسيغ الخبز القفار باستنشاق رائحتها ، ثم لقى التاجر فقال له : انك أيها السيد قد أحسنت الى أمس اذ منحتنى رائحة معزتك فاصطنعت بها هنيئا . فأخذ التاجر بتلابيبه وهو يقول له : الآن علمت كيف ضاعت النكهة من لحمها . فقد اختلستها أنت اذن ولا ندرى . وساقه الى هارون الرشيد ـ وقد كان شديد المحاباة للتجار ـ فحكم على المسكين بتغريمه اثنتى عشرة روبية يأخذها التاجر ثمنا لنكهة ذبيحته ، وخرج المسكين يبكى لأنه لايملك فلسا من

هذه الغرامة ، فوجد ابا نواس فى الطريق وعطف عليه أبو نواس حيث علم منه سبب بكائه ، ووعده أن يساعده ، ثم أعطاه اثنتى عشرة روبية وأوصاه أن يغدو بها الى السلطان ولا يؤديها له حتى يحضر هو مجلسه . ثم كان الغد فجاء الى المجلس ورأى المسكين يعد الدراهم فأخذها منه ورنها على الأرض ، وسأل التاجر : أسمعت رنينها ؟ قال : نعم . ومد يده الى الدراهم يريد أن يقبضها ، فرده أبو نواس وصاح به : حسبك . لقد وصل اليك الثمن رنينا برائحة . فاذا كان المسكين قد شبع من رائحة طعامك فأنت حرى أن تملأ يدك من رنين دراهمه ، وترك الروبيات للمسكين ، وانصرف الى داره »

هذه نادرة تروى فى سواحل افريقية الشرقية ، ويتحدثون فيها بالروبيات وهم يذكرون نقود بغداد ، وهذه النادرة بشىء من التصرف فيها تروى فى قصص جحا وتروى فى قصص رابليه

ومن النوادر مايتوارد فى خرافات ايسوب وحكايات الف ليلة ، كحكاية الحمار والثور مع صاحب الزرع ، وقد جاءت فى أوائل الف ليلة بالعبارة الآتية :

« اعلمى يابنتى أنه كان لبعض التجار أموال ومواش وكان له زوجة وأولاد وكان الله تعالى أعطاه معرفة الحيوانات والطير وكان مسكن ذلك التاجر الارياف وكان عنده فى داره حمار وثور فأتى يوما الثور الى مكان الحمار فوجده مكنوسا مرشوشا وفى معلفه شعير مغربل وهو راقد مستريح ، وفى بعض الأوقات يركبه صاحبه لحاجة تعرض له ويرجع على حاله ، فلما كان فى بعض الأيام سمع التاجر الثور وهو يقول

للحمار هنيئا لك ذلك : أنا تعبان وانت مستريح تأكل الشعير مغربلا ويخدمونك وفى بعض الأوقات يركبك صاحبك ويرجع وانا دائما للحرث والطحن ، فقال له الحمار : اذا خرجت الى الغيط ووضعوا على رقبتك الناف فارقــد ولا تقم ولو ضربوك وامتنع عن الأكل والشرب يوما أو يومين أو ثلاثة فانك تستريح من التعب والجهد . وكان التاجر يسمع كلامهما فلما جاء السواق الى الثور يعلفه أكل منه شــيئا يسيرا فأصبح السواق يأخذ الثور الى الحرث فوجده ضعيفا فقال له التاجر : خذ الحمار وحرثه مكانه اليوم ، فلما رجع آخر النهار شكره الثور على تفضلاته حيث أراحه من التعب ذلك اليوم فلم يرد عليه الحمار جوابا وندم أشد الندامة ، فلما كان ثانى يوم جاء المزارع وأخذ الحمار وحرثه الى آخر النهار . فلم يرجع الحمار الا مسلوخ الرقبة شديد الضعف . فتأمله الثور وشكره وحمده ، فقال الحمار : اعلم أنى لك ناصح . وقد سمعت صاحبنا يقول : ان لم يقم الثور من موضعه فأعطوه للجزار ليذبحه ويعمل جلده قطعا وانا خائف عليك ونصحتك والسلام . فلمـا سمع الثور كلام الحمار شكره وقال : فى غد أسرح معهم . ثم ان الثور أكل علفه بتمامه حتى لحس المذود بلسانه . فلما جاء النهار خرج التاجر وزوجته الى دار البقر وجلسا ، فجاء السواق وأخذ الثور وخرج . فلما رأى الثور صاحبه حرك ذنبه ... وبرطع . فضحك التاجر حتى استلقى على قفاه »

هذه القطعة جاءت متصلة بغيرها فى الف ليلة وليلة لمناسبة تجر وراءها مناسبة اخرى على الأسلوب المطرد فى

تسلسل الروايات بألف ليلة وليلة ، ولكنها جاءت فى خرافات ايسوب منفردة ، على اختلاف فى المغزى ، بالعبارة التالية :

« كانت معزة وحمار فى حوزة صاحب واحد ، وكانت المعزة تغار من الحمار لأنه كان وافر الطعام يكفيه ويفيض منه ، فقالت له : ان حياتك نصب دائم ، تدير الطاحون وتحمل الأثقال ، فأنصح لك بأن تجمح يوما وتسقط فى حفرة تستريح بعدها . فعمل الحمار بنصيحة المعزة واصيبت رجله اصابة بالغة من جراء سقطته ، وارسل صاحبه فى طلب البيطار ليسأله رأيه ، فوصف البيطار للحمار مرقا من طحال معزة وقال انه دواء صالح لعلاج دائه . فذبحوا المعزة لمداواة الحمار

« والمغزى من هذه الحكاية ان من نصب فخا لغيره جر البلاء على نفسه »

وفى خرافات ايسوب نوادر أخرى يقل فيها التحوير ويتقارب فيها المغزى ، مما تناقله المشارقة عن جحاوأمثاله، ومنها مالم يرد فى الخرافات القديمة كأنه أضيف اليها بعد عصر ايسوب او بعد العصر المفروض له ولخرافاته ، ومنها ماهو قديم منقول عن الحكمة الموضوعة على ألسنة الحيوان، وهى شائعة فى الشرق من الصين والهند الى البلاد العربية على اتساعها وتباعد اقطارها

ولا نرانا فى حاجة الى انتظار عصر المطبعة أو عصر التأليف وتداول الكتب بين الأمم لتعليل هذا التوارد بين النوادر والحكايات فى المشرق والمغرب ، وبين القارات الثلاث من العراق الى الاندلس وفرنسا الى افريقية الشرقية . فان انتقال هذه النوادر على طرق الرحلات والقوافل أسبق

جدا من كل تأليف أو طباعة ، وقد كان الرحالون يطوفون البلاد من أقصى العالم المعمور الى اقصاه ولا سمر لهم فى الرحلة أشهى ولا أدل على حنكة السائح وطول عهده بالترداد على البلاد من أحاديث الحكمة والفكاهة وأطوار الناس وغرائب الاقطار

خذها شرودا فى البلاد مقيمة
سمرا لذى سمر وزاد مسافر

فاذا سمعت القصة فى بغداد لم يكن بعيدا عليها أن تسمع فى بلاد الشمال من أوربا او بلاد الجنوب من أفريقية مع قوافل الرحالين والسياح الذين يسمرون بها فى سهراتهم ويتنافسون عليها بين المأثور عن أقوامهم واوطانهم ، وليس العجيب ان تسرى هذه النوادر هذا السريان المستفيض بين مرامى السياحة ومطارح السفر ، بل العجيب ان يكون للرحالين والسياح حديث غيرها فى لياليهم الطوال كلما فرغوا من أحاديث العمل وما اليه

□

ولاينتظر منا بعد هذه الفوضى الجحوية أن نبت فى نسبة النوادر كلها او بعضها الى صاحبها ، لأن صاحبها غيرواحد، ولأن أصحابها المتعددين ضروب من الخلق تصلح النوادر لأحدها كما تصلح للآخر ، ولكننا نستطيع أن نقسمها على ثقة الى اقسامها الواضحة من حيث الدلالة او من حيث « الدور » الذى تؤديه ، ومنها مايمثل الذكاء والحكمة ، وما يمثل البلاهة والحماقة ، وما يمثل التباله والتحامق أو التغابى ، ولا يقع اللبس كثيرا بين هذه الأقسام أو بين هذه الأدوار

وسنختار فيما يلي عشرين نادرة فى كل قسم من هذه الاقسام أو كل دور من هذه الادوار ، ثم نتبعها ببعض القرائن التى تساعدنا على نسبتها الى أقوامها مع التحفظ والتوسع فى هذه النسبة الجزافية ، وأما النسبة الى الآحاد من أصحاب اسم « جحا » أو غير أصحابه فنعرض لقرائنها الممكنة بعد ذلك على قدر المستطاع



٦٠ نادرة

من نوادر الذكاء والحكمة
والحماقة والبلاهة
والتحامق والتباله ...

نوادر الذكاء والحكمة

١ ـ آل خبره

كان جحا يتولى القضاء ، فجاءه رجل يستغيث به لانه وجد طنبوره المسروق ، مع بائع فى السوق ، واراد ان يأخذه منه فادعاه السارق لنفسه وانكره ، فأرسل جحا فى طلب البائع المتهم ، وسأل صاحب الطنبور عن شهوده ، فجاءه بشاهدين ، احدها صاحب حانة ، والآخر ماجن متبطل بغير عمل

وشهد الشاهدان بانهما يعرفان الطنبور ويعرفان انه للمدعى ، وعلامته أن فيه كسرا بأعلاه ورباطا بأسفله ، وليست مفاتيحه محكمة الشد والحركة

وطابقت العلامة وصف الطنبور ، ولكن السارق طلب تزكية الشاهدين وقال ان شهادة الخمار والماجن لا تقبل فى الشريعة

قال جحا : « نعم . واما حين تكون الدعوى على طنبور فالخمار والماجن اصلح الشهود » !

٢ ـ من راقب الناس

كان لجحا ولد يعصيه كلما امره بعمل ، ويقول لابيه : « وماذا يقول الناس عنا ان علمناه ؟ »

واراد جحا ان يلقنه درسا ينفعه ، ويعلمه ان رضى الناس غاية لا تدرك . فركب حماره وامر ابنه ان يتبعه ، ولم يمض غير خطوات حتى مر ببعض النسوة فشتمنه وقلن له : « ايها الرجل ! اما فى قلبك رحمة ؟ تركب انت وتدع الصبى الضعيف يعدو وراءك » ؟

فنزل جحا عن الحمار ، وامر ابنه بركوبه ، ومضى مسافة غير بعيدة ، ثم مر بجماعة من الشيوخ يستشرقون ، فدق احدهم كفا بكف ، ولفتهم الى هذا الرجل الاحمق ، وهو يقول ويعيد : « لمثل هذا فسد الابناء ، وتعلموا عقوق الآباء ... ايها الرجل ! تمشى وانت شيخ ، وتدع الدابة لهذا الولد ، وتطمع بعد ذلك ان تعلمه الادب والحياء » ؟

قال جحا لولده : « اسمعت ؟ تعال اذن نركب الحمار معا » ...

وما هى الا لحظة ، حتى مر بهما جماعة من اصدقاء الحيوان صاحوا بهما : « اما تتقيان الله فى هذا الحيوان الهزيل ؟ اتركبانه معا ، وكل منكما يزن من اللحم والشحم ما يزيد على وزن الحمار » ؟

قال جحا لولده : « الآن نمشى معا ونرسل الحمار امامنا ، لنأمن سوء القالة من النساء والشيوخ واصدقاء الحيوان »

وما هى الا لحظة اخرى حتى مر بهما طائفة من « اولاد البلد » الخبثاء ، فجعلوا يعبثون بهما ويقولون لهما : « والله ما يحق لهذا الحمار الا ان يركبكما او تحملاه وتريحاه من وعثاء الطريق » !

فمال جحا الى شجرة ، واخذ منها فرعا متينا وربط فيه الحمار ، وحمل الفرع من طرف ووضع الطرف الآخر على

كتف ولده . فاذا البلد كله وراء هذا الركب العجيب ، واذا بالشرطى يفض هذا الزحام ليسوقهما الى البيمارستان

قال جحا لابنه فى طريقهما مع الشرطى : « هذه يا بنى عاقبة من يستمع الى القال والقيل ، ولا بعمل عملا الا ابتغى به مرضاة الناس » !

٣ ـ احصاء المنافقين والرقعاء

كان جحا دائم الشكوى من أهل بلده ، يقول لكل من لقيه منهم او من الغرباء عنهم انهم كلهم منافقون رقعاء

ولامه هذا وراجعه ذاك ، فعمد الى اقناع اللائمين والمناقضين بأسلوبه فى الاقناع : أسلوب المشاهدة والعيان ، فخلع باب الدار وحمله على ظهره وقال لاول مناقض له فى تشهيره بأهل البلد : « تعال معى واحسب » !

وعند منعطف الطريق صاح به صائح من اهل البلد وهو يضحك : « ما هذا الذى تحمله على ظهرك يا جحا » ؟

قال جحا لصاحبه : « هذا واحد : اتراه لا يعرف الباب الطويل العريض الذى يسأل عنه » ؟

٤ ـ العصا تحمل الارجل

حمل جحا اوزة مشوية الى الامير ، وغلبه الجوع ورائحة الشواء فى الطريق ، فأكل احدى رجليها

ثم وضعها بين يدى الامير ، فسأله عن الرجل الناقصة اين ذهبت ؟

قال : « لم تذهب الى مكان ، وانما الاوز كله برجل واحدة فى هذا البلد » ، ثم تقدم بالامير الى نافذة القصر واشار الى

سرب من الاوز قائم على قدم واحدة كعادته فى وقت الراحة.
فدعا الامير بجندى من حرسه وأمره أن يشد على سرب
الاوز بعصاه ، وما كاد يفعل حتى أسرع الاوز يعدو هنا
وهناك على قدميه

قال الامير : « ارأيت ؟ ان اوز هذا البلد ايضا خلق بقدمين
ولم يخلق بقدم واحدة » !

قال جحا : « مهلا ايها الامير ... لو شد احد على انسان
بهذه العصا لجرى على أربع » !

٥ ـ تماطل الله وتستدين

جلس جحا يبيع زيتونه فساومته امرأة ، واستكثرت
على الزيتون الثمن الذى طلبه ، وقالت له : « اذا اردت ان
تبيعنى بالثمن الذى أخبرتك به مؤجلا ، فأنت تعرف زوجى
وهو فلان بن فلان » !

وناولها جحا زيتونة ، لتذوقها وتعرف جودة الصنف
وحقه من الثمن ، فاعتذرت بانها صائمة لانها مرضت من
سنة وافطرت فى شهر رمضان !

قال جحا : « الآن بطل الخلاف ، لا مساومة ولا تأجيل ...
اتراك تماطلين الله سنة ولا تماطليننى الى يوم القيامة » ؟

٦ ـ تيمور فى الآخرة

وسأله تيمورلنك الطاغية المشهور : « اين ترى يكون
مثواى فى الآخرة ياخوجة نصر الدين ؟ »

فقال جحا ولم يتردد : « واين ترضى ان تكون ، ان لم
تكن مع جنكيز خان والاسكندر وفرعون والنمروذ » ؟

٧ ـ ثمن طاغية

وسأله تيمورلنك ، وقد اخذه معه الى الحمام ، وخلع ملابسه الا مئزرا يديره على وسطه : « بكم تشترينى الآن ، لو عرضت عليك فى السوق ياخوجة نصر الدين » ؟

قال : « بخمسين دينارا »

قال تيمور : « ويحك ! ان ثمن هذا المئزر خمسون دينارا »

قال جحا : « وهذا هو الثمن الذى حسبته » !

٨ ـ الحساب المهضوم

واراد تيمور ان يصادر أموال الحاكم بمدينة « آق شهر » ، فاتهمه باختلاس اموال الديوان ، وابرا الحاكم بذمته بالحساب المكتوب على دفاتر الديوان الغلاظ ... فأخذها تيمور من يده ومزقها وامره بابتلاعها ، ثم احال حكم المدينة الى الخوجة نصر الدين

وحان موعد الحساب فجاءه الخوجة نصر الدين بجلود مطوية نشرها فوجد فى طيها رقائق من الخبز مكتوبا عليها الحساب بالحلوى

قال تيمور : « ما هذا » ؟

قال الخوجة : « هذا الذى يحتمله جوفى يا سيدى ، لاننى شيخ فان ولست فتى ضليعا كحاكمك القديم »

٩ ـ أيهما أحب اليه

وكانت له زوجتان ، فجلس معهما يتسامر ، وطاب لهما ن تحرجاه ، فسألتاه : أيهما أحب اليه

قال : « انتما معا حبيبتان الى قلبى » !

قائلتا : « لا ، انك لا تستطيع ان تضحك منا بهذه المراوغة، وامامك هذه البركة نخيرك فى اغراق احدانا بها ، فمن منا تلقى بها فى الماء الآن ؟ »
وحار فى امره هنيهة ، ثم التفت الى الزوجة الاولى وقال لها : « اذكر انك تعلمت السباحة قديما يا عزيزتى » !

١٠ ـ المكان الامين فى الجنازة

وسئل : « أيهما أفضل ؟ المسير خلف الجنازة ، أو المسير أمامها ؟ »
قال : « لاتكن فى النعش ، وسر حيث تشاء »

١١ ـ والقبلة الامينة

وسئل : « وماذا يستقبل السابح اذا نزل فى الماء » ؟
فقال : « يستقبل المكان الذى عليه ملابسه »

١٢ ـ الفضول

ولقيه بعض معارفه فى الطريق فقال له : « انى رأيت الساعة رسولا يحمل مائدة حافلة بالطعام الفاخر »
قال جحا : « وماذا يعنينى ؟ »
قال صاحبه : « انهم يحملونه الى بيتك »
قال : « وماذا يعنيك » ؟

١٣ ـ التقوى المهلكة

وسكن فى دار ، فشكا الى صاحبها انه يسمع قرقعة فى سقفها
قال صاحب الدار : « لا تخف . انه يسبح الله »
قال : « وهذا الذى اخشاه ، تدركه رقة فيسجد علينا »!

١٤ ـ « حدود الابوة »

وسئل جحا : « هل يولد للرجل بعد بلوغ الستين ؟ »

قال : « يجوز » !

قيل : « وبعد بلوغ الثمانين » ؟

قال : « يجوز »

قيل : « وبعد بلوغ المائة » ؟

قال : « نعم . . . اذا كان له جار فى العشرين » !

١٥ ـ العمامة القارئة

وعرض عليه رجل كتابا بالفارسية ليقراه له فتعلل برداءة الخط ، ورد له الكتاب

قال صاحب الكتاب محنقا : « وعلام اذن تضع هذه العمامة على راسك ، كأنها الرحى ؟ »

فخلع الشيخ العمامة ، ووضعها جانبا ، وقال له : « دونك العمامة فاسألها ، فانها صاحبة العلم الذى تبغيه »!

١٦ ـ تحويل الجزاء

وصفع رجل « جحا » على قفاه بعرض الطريق يريد أن يسخر منه ، فأخذ جحا بتلابيبه الى القاضى ولم يقبل منه اعتذاره بالخطأ فيه ، لانه ظنه من اصدقائه الذين يمازحونه بمثل هذا المزاح الثقيل

وكان الرجل العابث من معارف القاضى فاحب ان ينجيه من العقاب ، وحكم لجحا بان يصفعه كما صفعه او يتقبل منه عشرة دراهم على سبيل الجزاء او التعويض

وطمع جحا فى الدراهم فسأل القاضى المدعى عليه : «امعك الدراهم » ؟

وفطن صاحبنا لغرض القاضى فقال : « كلا ، ولكننى احضرها بعد قليل من البيت »

واذن له القاضى بالانصراف لاحضار الدراهم ، فذهب ولم يعد . وطال الانتظار على جحا ، فأدرك حيلة القاضى واقترب منه كأنه يهمس فى أذنه ، ثم صفعه صفعة عنيفة ، وقال له وهو ينصرف : « اذا عاد اليك الرجل بالدراهم ، فخذها حوالة منى اليك » !

١٧ ـ دعوى بدليلها

وادعى الولاية ، فسأله السامعون عن كرامته ، فقال : « اتريدون منى كرامة اعظم من علمى بما فى قلوبكم جميعا »؟

قالوا : « وما فى قلوبنا » ؟

قال : « كلكم تقولون فى قلوبكم اننى كذاب » !

١٨ ـ من يلد يمت

واستعار حلة كبيرة من جاره ، ثم اعادها اليه وفيها حلة صغيرة . فسأله جاره : « وما هذه » ؟ قال : « هذه بنتها ، ولدتها عندنا » فتقبلها جاره ولم ينكر عليه

ثم استعارها مرة اخرى ولم يردها ، فلما سأله عنها ، قال : « البقية فى حياتك ، انها ماتت عندنا فى النفاس ... رحمها الله »

قال صاحب الحلة متعجبا : « ايموت النحاس ؟»

قال جحا : « من يلد يمت ، وقد يموت فى النفاس »

١٩ ـ ثمن الضرورة

وعطش فى طريقه ، وهو بمنقطع من الماء فى الصحراء ، فمر به اعرابى يحمل قربة ، عرض عليه جحا ان يبيعها اياه فلم يقبل باقل من خمسة دراهم ، فاشتراها جحا ، وجلس يأكل من طعام دسم كان معه ، واستضافه الاعرابى فاعطاه من الطعام ما اشبعه واظمأه ، فسأله شربة من القربة... فلم يقبل جحا باقل من خمسة دراهم ... وباع الشربة بثمن القربة !

٢٠ ـ ثمن الحمار !

وضاع حماره ، فاقسم ليبيعنه أن وجده بدينار واحد ثم وجده وندم على حلفه ، ولم يشأ ان يحنث فى قسمه، فاحتال عليه ليبر باليمين ، ويحفظ على نفسه ثمن الحمار ، وعرض الحمار فى السوق وقد ربط الى عنقه حذاء قديما ، فجعل ينادى عليه : « الحمار بدينار والحذاء بعشرة دنانير ، ولا يباعان على انفراد » !

٢١ ـ الكرام قليل

امره الوالى ان يعد مجانين البلد ، فقال : « بل اعد لك العقلاء . ومن عداهم كثيرون لا يحصرون »

٢٢ ـ يقضى على القاضى

جاء الشرطى برجلين الى مجلس القضاء ، وجحا عند القاضى يحدثه فى بعض شئونه ، فعرض الشرطى قضية الرجلين ، وقال انه وجد فى الطريق بين بيتيهما اقذارا ممنوعة

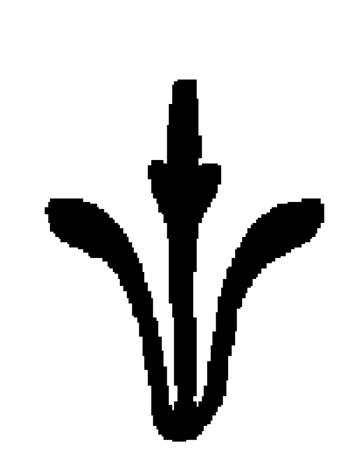
وادعى كل منهما ان جاره مطالب بازالتها ، لانه هو الذى وضعها فى عرض الطريق

واراد القاضى ان يعبث بجحا ليسخر منه ، ويفضح دعواه، لانه كان يدعى العلم ويتصدى للافتاء ، فاحال عليه القضية ، وسأله ان يقضى فيها بالحق بين الرجلين

فقبل جحا مقترح القاضى ، وسأل الشرطى : « هل كانت الاقذار اقرب الى دار هذا او دار ذاك » ؟

قال الشرطى : « انها كانت فى الوسط بينهما »

قال جحا : « انما يزيلها اذن مولانا القاضى ، لانها فى الطريق العام ، ومولانا القاضى هو المسئول عن المدينة » !



نوادر الحماقة والبلاهة

١ ــ على قدر الوضوء

توضأ جحا ، ولم يكفه الماءلاتمام وضوئه ، وبقيت رجله اليسرى بغير وضوء، فقام يصلى برجله اليمنى ولا يضع اليسرى على الارض ..

فسألوه : « مابالك تقف على رجل واحدة ؟ »

قال : « الاخرى غير متوضئة » !

٢ ــ انا مكرر

رأى رجلا فى الطريق لا يعرفه ، فتبسط معـــــه فى الحديث ، ورفع الكلفة بعد عبارة أو عبارتين

فعجب الرجل وسأله: « ألك بى معرفة فترفع الـكلفة هكذا بينى وبينك ؟ »

قال : « بل حسبتك أنا .. لان ثيابك كثيابى ومشيتك كمشيتى ، ولكنك لست انا كما علمت الآن » !

٣ ــ ترويج زوجة

وحاول أن يبيع بقرة له فأعياه بيعها ، فرآه دلال فى السوق ، تكفل له ببيعها اذا أسلمه اياها واعطاه الجعـل المعلوم ، وقبل جحا ، فأخذ الدلال ينادى على البقرة ، ويذكر منافعها ومحاسنها ، ومنها انها حبلى فى ستة أشهر

ثم جاء الخواطب الى داره يخطبون بنته ويتطلعون الى محاسنها ، فتذكر الصفة التى روجت سوق البقرة ، وقال للخواطب :

«هى كما ترون وزيادة.. انها حبلى فى شهرها السادس»

٤ - يريح كما يراح

ورأوه يركب حمارا ويحمل خرجه على كتفه ، فضحكوا منه ورموه بالعبث والدعابة ، وقال له قائل منهم : « الا تعرف كيف تضع الخرج تحتك أوامامك ولا ترهق نفسك بحمله وانت راكب ؟ »

قال : « عدل من الله ، أراضى الحمار من حمل نفسى بأن اريحه من حمل خرجى » !

٥ - أكبر خوخة

وكان فى منديله فاكهة ، فسأله بعضهم : « ماهذا الذى فى منديلك يا جحا ؟ »

قال : « لا أقول لكم ، ولكنى أعطيكم أكبر خوخة اذا عرفتموه »

قال السائل : « انه خوخ » !

فانطلق قائلا : « أى ملعون أنبأكم بأمره وهو مصرور » !

٦ - احجية محلولة

ورأى بعضهم أن يمتحنه فقال له : « ان عرفت ما فى منديلى أعطيتك واحدة منه تكفى لعمل عجة مليحة »

قال : « صفه لى ولا تذكر اسمه »

قال صاحبه : « انه أبيض وفى وسطه صفار »

قال جحا : « الآن عرفته ، انه لفت حشوتموه جزرا » !

٧ ـ الحمد لله

وضاع حماره فطفق يصيح وهو يسأل الناس عنـــه : « ضاع الحمار والحمد لله »

قيل له : « فهل تحمد الله على ضياعه ؟ »

قال : « نعم ، لو أننى كنت أركبه لضعت معه ولم أجد نفسى »

٨ ـ اربعون يوما من رمضان

وكان من عادته اذا صام يوما فى رمضان أن يلقى بحصاة فى جرة ، ورأته ابنته فألقت فى الجرة ملء كفيها من الحصى، وهى تظن انها تساعده

وسأله الجيران يوما : « كم بقى من رمضان ؟ »

قال : « أما مابقى فلا أعرفه ، ولكنى عليم بما مضى من ايامه »

ثم عد الحصى ، فزاد على مائة وعشرين حصاة

قال بينه وبين نفسه : « لو انبأتهم بهذا العدد لسخروا منى ، ولكنى أنزل به الى أربعين »

ثم خرج لهم يقول : « مضى من الشهر اربعون يوما على التقريب »

فتضاحكوا منه ، وتضاحك هو منهم وهو يقول : « انه شهر طويل على الصائمين ، فماذا تصنعون لو انبأتكم بالعدد الصحيح ؟ »

٩ ـ الشمس والقمر

وسألوه : « ايهما أنفع : الشمس او القمر ؟ »

فلم يتمهل واجابهم بيقين : « انه القمر ولا مراء »
فسألوه : « ولم ؟ »
قال : « لان الشمس تطلع فى النهار حين يستغنى عنها الناس ، وأما القمر فلا يطلع الا فى الظلام على حين الحاجة اليه »

١٠ ـ البحث فى النور

وراوه يبحث فى أرض لاشيء فيها ، فسألوه : « عم تبحث ؟ »
قال : « خاتم سقط منى »
قالوا : « وهل سقط هنا وليس فى الارض أثر للخواتم ؟ »
قال : « بل سقط فى الزقاق الذى هناك »
قالوا : « ومابالك لاتبحث عنه حيث سقط ؟ »
قال : « وأى جدوى للبحث فى الظلام ؟ »

١١ ـ حمار ممسوخ

اشترى حمارا ، واقتاده بزمام طويل ، فتغفله لصان ، ذهب أحدهما بالحمار ، وربط الآخر نفسه فى مكانه
والتفت جحا فرأى انسانا فى مكان الحمار
فاستعاذ بالله ، وسأله : « أين الحمار ؟ »
قال : « انا الحمار ، أعادنى الله انسانا ببركتك كما كنت بعد أن مسخت حمارا لدعاء والدتى على »
فبارك له جحا ، واطلقه وهو يوصيه بطاعة أمه ويحذره العودة الي اغضابها ، وجر الغضب من الله عليه بدعائها
ثم عاد الى السوق بعد برهة ليشترى حمارا غير ذلك

الانسان الممسوخ ، فرأى الحمار بعينه فى يد الدلال ،فمال على أذنه وهمس فيها قائلا : « لن تنفعك بركتى بعـــد مسختين ، ولن أشتريك وأنت بهذا العصيان » !

١٢ ـ نصف بنصف وتتم الدار

وكان يشارك على دار ، فباع نصفها الذى يملكهليشترى بثمنه النصف الآخر ، وتخلص له الدار بغير شريك !

١٣ ـ دابة على رمح

ونام فى الخلاء ومعه عكاز طويل ركزه ووضـــع صرة النقود على راسه لكيلا ينالها أحد

فرآه لص وعرف غفلته، فأخذ النقود ووضع فىموضعها روث دابة

وتيقظ جحا ، فوجد الروث فى مكان الصرة ، فلم يعجب لسرقة النقود ولكنه عجب للدابة التى استطاعت أن تصعد على عكاز لتصنع به ذلك الصنيع

١٤ ـ مكافاة معقولة

وحمل الى تيمور رمانات باكورة ظهرت فى غير أوانها ، فرضى عنه تيمور وأرضاه

ثم طمع فى جائزة أخرى ، فجمع رؤوسا من اللفتليهديها اليه ، فقال له بعض جيرانه أن اللفت لايصلح لاهداء الملوك ، فاذهب اليه بنخبة من التين فهو الطف واحلى

واستكبر تيمور ان يهدى اليه التين وهو يملأ الاسواق ، وأحب ان يكف جحا عن طمعه ، فأمر الجنـــد إن يقذفوه بالتين واحدة بعد واحدة

فوقف جحا يتلقى الضربات على رأسه وعلى وجهه وعلى عينيه وأنفه وهو يضحك ويدعو للجار الذى أسدى اليه النصيحة الصادقة

واشتد عجب تيمور من ضحكه ودعائه ، فأمر الجند أن يمسكوا عن ضربه ، ليسأله عن سر ذلك الضحك وذلك الدعاء

قال : « انه سر عظيم ، لو كان اللفت فى موضع هذا التين ، لتهشم رأسى وانفقأت عيناى » !

١٥ ـ بروج نامية

وسألوه : « ماطالع نجمك ؟ »
قال : « ولدت والشمس فى برج التيس »
قالوا : « لا يوجد فى السماء برج يسمى برج التيس ، ولكنك تعنى برج الجدى »
قال : « أفمن مولدى الى اليوم لايصبح الجدى تيسا ؟ »

١٦ ـ كيف يعرف يمينه ؟

وانطفأت شمعة فى داره فطلبت منه زوجته أن يناولها اياها من يمينه
قال : « يا حمقاء ! وكيف أعرف يمينى من شمالى فى هذا الظلام ؟ »

١٧ ـ ادب مع التلاميذ

وركب بغلته مستدبرا رأسها فسأله تلاميذه : « لماذا لا تعتدل فى ركوبك يامولانا ؟ »

قال : « هذا هو الاعتدال ، أدير ظهرى لرأس البغلة ولا أديره لرؤوس الآدميين ! »

١٨ ــ يسمع صوته من بعيد

ورأوه يوما وهو يغنى ويجرى ، فسألوه : « ما بالك تغنى وتجرى ؟ »

قال : « أحب أن أسمع صوتى من بعيد ! »

١٩ ــ لماذا ينتشرون

سألوه : « لماذا ينتشر الناس فى جوانب الارض ، ولماذا يذهبون ذات اليمين وذات اليسار كل صباح ؟ »

فتأمل قليلا ثم قال : « لو ذهبوا الى ناحية واحدة ، لمالت بهم الارض وانكفأت بهم فى هاوية ليس لها قرار ! »

٢٠ ــ لماذا لاتاكله

ومر بفرن تتصاعد منه رائحة الخبز الساخن ، وهو يشتهيه ، ولا يقدر عليه لخلو يده ، فاتجه الى الفران وسأله: « الك كل هذه الرغفان ؟ » قال : « نعم » قال : « ولماذا لا تأكلها يا أحمق ؟ »

نوادر التحامق والتباله

وهذه نوادر منسوبة الى جحا تتوسط بين الحكمة البينة والحماقة البينة ، لا نقتصر فى اختيارها على النوادر التى يصطنع فيها الحماقة ويتكلفها كأنه يمثلها ويستعيرها ، ولكننا نختار من هذه النوادر كما نختار من النوادر التى لا تحسب بطبيعتها من الحكمة ولا تحسب من الحماقةولكنها

تتوسط بينهما وتغلب عليها هذه مرة وتلك مرة أخرى ، وكلها قد نسبت الى جحا كما نسبت بموضوعها أوبمغزاها الى ذوى السمعة الفكاهية من أمثاله

١ ـ احمق واحمقان

رآه الطحان يأخذ من قفف الناس ويضع فى قفته ، فصاح به : « ماهذا ياجحا ؟ »

قال جحا : « لا تؤاخذنى فاننى رجل أحمق »

قال الطحان: « لو كنت أحمق لاخذت من قفتك ووضعت فى قفف الناس » !

قال : « ويحك ! انا أحمق واحد ، ولو صنعت كما تقول لكنت أحمقين » !

٢ ـ مالايغتفر

ولقيه بعضهم يلهو فقال له : « أنت هنا تلهو وامرأتاك تقطع احداهما الاخرى ؟ »

ولم يشأن يدع مجلسه فسأل الرجل متضاحكا: «أقالت احداهما للأخرى شيئا يتعلق بالعمر ؟ »

قال : « كلا »

قال : « اذن لاداعى للوساطة ، فانها مشكلة سليمة » ؟

٣ ـ مرق مرق المرق

جاءه ضيف ريفى ومعه أرنب فأكرمه وشيعه كمـــا استقبله بالحفاوة والتحية

ثم مضى أسبوع وجاءه ضيف من بلدة صاحب الارنب وقال له انه جاره القريب

ثم مضى أسبوع أو أسبوعان وجاءه من تلك البلدة جيران كثيرة يزعمون جميعا أنهم جيران الرجل فى داره أو حقله أو دار أحد من أهله

فأجلسهم جميعا على السماط وجاءهم بطست كبير فيه ماء غال ، وأومأ اليهم قائلا : « تفضلوا فكلوا من مرق مرق الارنب ، يا جيران جيران صاحب الارنب المشئوم » !

٤ ــ بلبل ولا كالبلابل

وصعد على شجرة يقطف من ثمرها فحضر صاحب البستان وفاجأه وهو على تلك الحال

قال صاحب البستان : « من أنت ياهذا ؟ »

قال جحا : « انا بلبل أتنقل على الاغصان »

قال صاحب البستان : « أسمعنا اذن من غنائك أيها البلبل المجيب »

فتغنى جحا بصوت لا يسمع ولا يشبه تغريد البلبل ، وقال صاحب البستان : « ماهذا بتغريد بلابل »

قال جحا : «هاتها واسمعها ، ألم تقل اننى بلبلعجيب ؟»

٥ ــ مصيبة أكبر من مصيبة

ونظر تيمور الى وجهه فى المرآة بعد أن تنعم وتعود معيشة القصور فانقبض لمنظره القبيح ، ولمح وزيرهانقباضه فأخذ يواسيه على عادة الوزراء بما يسرى عنه ، وقال له فيما قال : « مثلك أيها الخاقان الاعظم لا يأسى على جمال الوجوه وقد أعطاك الله بسطة في الجسم وبسطة فى القوة وبسطة فى الثروة والسلطان ، وانما يأسى على جمالالوجوه



اللص لجحا : من أنت يا هذا ؟
جحا : أنا صاحب هذه الدار التي نقلتنا اليها .. !!

النساء وأشباه النساء من الرجال »

فانبسطت أسارير الطاغية ، وابتسم راضيا عما قاله الوزير ، ولكنه التفت الى الخوجة نصر الدين فرآه يبكى ويستخرط فى البكاء

قال له : « ماخطبك ياخوجة نصر الدين ؟ انا صاحب المصيبة تسليت ، وأنت تأبى أن تتسلى ؟ »

قال جحا : « معذرة يامولاى ، ان مصيبتى أكبر من مصيبتك أضعافا مضاعفة . أنت نظرت الى وجهك مرة فانقبضت . فماذا أصنع أنا الذى أنظر اليك بالليل والنهار مرات ؟ »

٦ ــ نقل

دخل لص منزله وحمل بعض أثاثه ، فحمل هو بقية الاثاث حتى دخل وراء اللص الى داره

ونظر اللص وراءه فرآه يدخل الدار ، فسأله : « من انت ياهذا ؟ »

قال : « انا صاحب هذه الدار التى نقلتنا اليها !.. »

٧ ــ كلهم محقون

اختصم رجلان من أصدقائه وجاءه أحدهما يعرض عليه شكواه ، فقال له : « انك محق فى شكواك أيها الصديق »

وجاءه الصديق الثانى فى اليوم التالى فعرض عليه شكواه فقال له كما قال لخصمه : « انت محق أيها الصديق »

وكانت امراته تسمع القصتين فسخرت منه قائلة :

« يالك من منافق ، خصمان مختلفان ، وكلاهما محق فى شكواه ؟! »

قال : « ولماذا تغضبين ؟ أنت محقة أيضا فيما تقولين ؟ »

٨ ـ تنقلب الدنيا

وأراد أن يتزوج ، فبنى دارا تتسع له ولاهله ، وطلب من النجار أن يجعل خشب السقوف على أرض الحجرات ، ويجعل خشب الارض على السقوف ، فراجعه النجار دهشا ، ولم يفهم ما يعنيه

قال جحا : « أما علمت ياهذا أن المرأة اذا دخلت مكانا جعلت عاليه سافله ؟ اقلب هذا المكان الآن يعتدل بعد الزواج » !

٩ ـ خروف على عيبه

وارسله أبوه يشترى له راس خروف مشوى بأقل من ثمنه ، فأكل فى الطريق لسانه ، ثم راودته نفسه فأكل عينيه ، ثم اكل أذنيه ، ثم اكل شواته (جلدة راسه) ومخه ، وذهب به الى ابيه جمجمة نخرة

فجعل ابوه يقلبها ويسأل : « اين مخه » ؟

فيقول جحا : « كان مجنونا بغير عقل »

فيسأله : « واين عيناه » ؟

فيقول جحا : « كان أعمى »

ويسأله : « واين شواته » ؟

فيقول جحا : « كان اقرع »

ويسأله : « اين لسانه » ؟

فيقول : « كان اخرس اعجم »

قال ابوه : « فاذهب رده الى صاحبه »
قال : « انما اشتريته بقليل الثمن على البراءة من كل عيب »

(١٠) العقاب قبل الذنب

وناول بنته الصغيرة جرة تملأها ، وحذرها ان تكسرها ، وانذرها لئن كسرتها ليصفعنها هكذا ، واردف الانذار على الاثر بصفعة قوية ابكتها

فنظر اليه عابر طريق ولامه على ضرب البنت الصغيرة فى غير جريرة ، وقال له : « اتضربها قبل ان تكسرها » ؟
قال : « يا احمق . انما اضربها لتعرف الم العقاب فتحذره ، وأما بعد كسر الجرة فما الفائدة من ضربها ؟ »

(١١) العائل الاكبر

سأله الامير : « كم عيالك » ؟
قال : « سبعة » !

فاعطاه لكل من عياله مائة درهم ، وخرج جحا ، ثم عاد اليه على الاثر وهو يقول : « نسيت واحدا ايها الامير انفق من مالى عليه كما انفق على هؤلاء »
قال الامير : « من يكون ياترى » ؟
قال : « انا اكبر عيالى ايها الامير »

(١٢) ياكلون بالضرب

وذهب الى قونية ، فاعترضه فى طريقه دكان حلوى تعرض فيه اصناف الفطائر والفاكهة المسكرة صابحة شهية

فاهوى عليها ياكل منها بلا استئذان ، واهوى صاحب الدكان عليه بالعصا يريد ان يحول بينه وبين حلواه ، فتغابى جحا وراح يثنى عليه ويثنى على أهل قونية ، ولم يزل يقول : « يالكم يا اهل قونية من قوم كرام ، تطعمون الناس بالعصا والكرباج » !

(١٣) ماذا يفعل بالحذاء

ولبس حذاء جديدا ، فنظر اليه بعض الشطار وارادوا ان يحتالوا عليه ليسرقوه ، فسألوه : « اتستطيع ان تصعد على هذه الشجرة وتأتى بشىء من ثمرها » ؟

قال : « نعم ، فكم جعلتم » ؟

فاعطوه ما تيسر لهم وانتظروا ان يخلع حذاءه ليصعد ، فلم يفعل ، بل صعد على الشجرة ومعه حذاؤه تحت ابطه

قالوا : « وماذا تصنع بالحذاء على الشجرة » ؟

قال : « اذا القيت اليكم الثمر فماذا يعنيكم من الحذاء ؟ اما انا فلعلى اجد لى طريق سفر من اعلى الشجرة فأذهب ولا أعود اليكم »

(١٤) لولاك ياكمى

وذهب الى وليمة بثياب العمل ، فطرده الخدم من الباب فعاد اليهم بثيابه المدخرة ، وعليه حلة من الحلل التى يخلعها عليه الامراء ، فأكرموه وتقدموه الى مكان المائدة ، فغمس كمه فى الصحان واحدة بعد واحدة ، وطفق يقول له كأنه يناجيه : « كل ، كل ياكمى ، فلولاك ما وصلت الى هذا الطعام » !

(١٥) ماذا اضاعت ؟

وقيل له : ان امرأتك أضاعت عقلها ، فأطرق يتأمل ، وقام الى داره يبحث فيها

قالوا : « ماذا تصنع ياجحا ؟ »

قال : « انكم تقولون انها اضاعت شيئا ، ولن يكون ذلك الشيء عقلها ، فانني لا اعرف لها عقلا تضيعه » !

(١٦) بالدور

وقيل له : ان امرأتك تتردد على البيوت وتطيل المكث فيها

قال : « غير صحيح ، ولو كان صحيحا لوصلت الى دارنا »

(١٧) اصدق من الحمار

ورجاه بعض جيرانه ان يعيره حماره ، فاعتذر له بذهابه الى الغيط

ثم نهق الحمار وهو يكلمه ، فعاتبه الجار قائلا : «اليس هذا حمارك ينهق فى الدار ، وانت تزعم انه ذهب الى الغيط » ؟

قال : « سبحان الله ، تكذبني وتصدق الحمار » ؟

(١٨) يصلح لكل شيء

وسأل امرأته ، وقد جاءها برطل من اللحم : « لماذا يصلح هذا » ؟

قالت : « يصلح لكل شيء » !

قال : « فاطبخي عليه اذن كل شيء » !

(١٩) قسمة الله

واختاره قوم للقسمة بينهم فسألهم : « اترضون قسمة الله أو قسمة عبيده » ؟

قالوا : « بل قسمة الله »

فاعطى احدهم درهمين ، واعطى الثانى دينارين ،واعطى الثالث لحافا ، واعطى الرابع سريرا عليه حشية ، واستبقى سائر التركة بين يديه

قالوا : « ويلك ! أهذه قسمة الله ؟ »

قال : « انظروا حولكم تفهموا قسمة الله وحكمة الله »

(٢٠) منوم موصوف

وطلبت منه امراته ان يعود اليها فى طريقه من المسجد بدواء منوم لطفلهما الذى يؤرقهما بالبكاء والصياح

فعاد وليس معه غير الكتاب الذى يقراه

قالت : « العلك نسيت الدواء » ؟

قال : « معاذ الله ، هذا هو الدواء ، وقد جربته اليوم فى الكبار فناموا جميعا ، فجربيه أنت فى الصغار »



موازين غير محكمة

موازين غير محكمة

هذه النوادر الستون التي تقدمت في الفصل السابق تصور لنا اقسام النوادر التي تنسب الىجحا ، وقد تنسب الى غيره ، ومنها ماينبىء عن حكمة ظاهرة وما ينبىء عن بلاهة ظاهرة ، وما ينبىء عن بلاهة مستترة بين الحكمة والبلاهة

وتندر بينها النادرة التي لم تنسب الى مصـــادر متعددة من الحكماء والحمقى والمحمقين ، وبعضها يروى عن اناس في الغرب الحديث كالنادرة التي تروى عن سن الولادة في الرجل ، والنادرة التي تروى عن الشجار بين المرآتين ، فان الاولى تروىعن نابليون وطبيبهوالثانيةتروىعنجولدسمث الكاتب الانجليزي المشهور الذى قيل فيه انه احمق الناس الا حين يتناول القلم فهو اذن من احكم الناس

قيل ان نابليون سأل طبيبه حين كان مشغولا بأمرولاية العهد : « هل يولد للرجل في الستين ؟ وهل يولد له في السبعين ، وهل يولد له في الثمانين » ؟ فكان جواب الطبيب عن ابن الستين نعم ، وعن ابن السبعين ، نعم في الندرة ، وعن ابن الثمانين انه يولد له اذا كان له جار في العشرين

وقيل ان امرأة جولد سميث وأخته تشاجرتا وهو غائب عن المنزل ، فادركه احد جيرانه وانباه بأمره هــذه المشاجرة ، فسأله : « هل قالت احداهما للاخرى انت

شوهاء » ؟ قال الجار : « كلا » . قال : « اذن هى مشاجرة مأمونة »

وقد سبقت الاشارة الى نوادر متشابهة بين الفكاهة المصرية والفكاهة فى المجر وأوربة الوسطى ، ولا يصعب تعليل ذلك بتوارد الخواطر فى الجواب البسيط على سؤال واحد او سؤالين ، وقد يعلل الكثير منه باطلاع الغربيين على النوادر التى ترجمت لهم من العربية فى القرون الوسطى وقد يكون المتشابه من تلك النوادر اضافة جديدة فى الكتب المطبوعة لم تتداولها ألسنة الناس قبل ذلك

الا ان النوادر التى لا شك فى مصدرها الشرقى كثيرة بين النوادر المنسوبة الى جحا وامثاله ، وهى على الجملة نوادر الزوجتين والقضاة الدينيين والضيافات التقليدية ونوادر الصيام والصلاة والفتاوى وما هو من قبيلها

فهذه لا شك فى مصدرها الشرقى من تخوم الصين الى آسيا الصغرى ووادى النيل ، فاين هـــو معيار النسبة الصحيحة بين كل هؤلاء الاقوام والامصار والاقطار ؟

فى النسبة التاريخية بعض المعايير النافعة على غير حسم ويقين . لان النادرة قد تقع فى القرن الثـــانى أو الثالث وتصحف بعد ذلك لتوائم القرن الذى نقلت اليه ، وما لم تكن مكتوبة فى مرجع معروف التاريخ فلا سبيل الى الجزم بنسبتها الى زمن من الازمنة على وجه اليقين

والمعيار الآخر « تقريبى » كالمعيار التاريخى لا ينتهى بنا الى الحسم ولا يسلم من اللبس والانتباه ، وذلك معيار الخصائص القومية التى نميزها بالظن ونقارب بالظن بينها وبين النوادر التى توائمها ولا توائم غيرها

وقد اسلفنا ان طبيعة الفرس تغلب عليها الصوفية والمحاولة الدبلوماسية ، وان طبيعة الترك يغلب عليهما تحصيل الحاصل مبالغة فى الواقع ، وان طبيعة العرب يغلب عليها الخيال والقياس المنطقى ، وتبالغ بها الفكاهة فتجنح بها الى الوهم والقياس مع الفارق الواحد اوالفوارق الكثيرة

افلا يعقل ان العبقرية التى اخرجت لنا القول بتسخير الجسد والاعضاء لحالات الروح تخرج لنا مع الفكاهة — والمحاولة الدبلوماسية — قصة الاوزة التى يخلق لها الخوف رجلين والرجل الذى يخلق له الخوف اربعا اذا عدا وراءه من يشد عليه بالعصا ؟

جائز أوراجح ، وهذاغايةما هناك ، ومثلها نادرة الولد العاق الذىمسخته دعوة أمهحمارا ثم عاد الى الآدمية ببركة الشيخ

وكذلك يعقل أن تحصيل الحاصل يخرج لنا فىبلاد الترك قصة المرأة التى يقال لزوجها انها تدور فى البيوت ، فيأخذ بالواقع — المفرط — ويقول : لو صح ذلك لدخلت الىبيتنا

ومثل هذه القصة قصة الرجل الذى يصطنع التعمية ويعلن انه يعطى اكبر « خوخة » فى المنديل لمن يخبره بما فيه ، ومثلها قصة الرجل الذى يضربونه لانه يأكل الحلوى فيحمدهم لانهم يكرهونه على الاكل بالسوط والعصا

كذلك يعقل ان القياس مع الفارق يخرج لنا نادرةالرجل الذى باع نصف الدار ليشترى النصف الآخر وتخلص له الدار بنصفيها . فما كل شراء يجمع للشارى بين النصفين ولكنه قياس مع الفارق لشراء على شراء

والحماقة التىادخلت فى روع صاحبها ان السحابةعلامة



جحا النبيه لحماره : الى الامام يا أحمق!.

صائحة للحفرة التى تحفر تحتها ـ هى بعينها التى ترى على الرمح روثة فلا تفهم منها الا ان الدابة صعدت على الرمح . ثم لا يبقى عليها الا البحث فى طريق الصعود

هذه معايير تقريبية لانأخذ بها ولا نهملها ، لان اهمالها اهمال لدراسة واسعة من دراسات العصر قابلة للمزيد من التوسع والاحكام

▭

وقد تعمدنا أن نختار بين النوادر السابقة طائفة من أشهر النوادر بين العامة والخاصة فىالبلاد العربية ، لانها اشتهرت حتى اصبحت علما على جحا دون غيره بين جمهرة الناس التى تتناقل النوادر والاحاجى من فم الى فم ولا ترجع الى الكتب والاوراق ، فليس من الجائز أن نسقطها من كتاب يدور فيه الكلام على جحا وما ينسب اليه منالنوادر والحماقات ، ومعظم نوادر جحا من قبيل هذه النوادر الساذجة فى تأليفها وموضع الحكمة فيها ، ولعلها ثلاثة ارباع المجموعة التى بلغت قرابة ستمائة ، وعتها الطبعة التركية كلها الا القليل الذى تناثر من صدر الاسلام الى ايام الدولة العباسية بين كتب الادب والفكاهة ، وفيها من الاسلوب الادبى والذوق الفنى ما ليس فى معظم النوادر الشائعة ، فان هذه النوادر الشائعة اقرب الى النفاية التى تتناقلها العجائز لتسلية الاطفال ومن هم فى مثل مداركهم من السذج والجهلاء ، وموضعها بين المحفوظات الشفوية التى يسميها الغربيون بالفولكلور أوقع من موضعهـــا بين كتب الادب والفكاهة الفنية

جحا في الأدب

جحا فى الادب ، او على الاصح النوادر الجحوية فى الادب لان هذه النوادر على انواعها موزعة بين زمرة من الحمقى والمحمقين بدأت الكتابة عنهم من القرن الاول للهجرة واشتهر منهم فى الادب العربى رهط يبلغ العشرة ويزيد عليها ، منهم هبنقة الاحمق وباقل العيى وأشعب الطفيلى وبنان الموسوس وابو العبر المتحذلق ومزبد المدينى والحموى الشاعر ، وغيرهم من المحتالين بالحماقة او التطفيل او الخلاعة ، وليس فيهم من الخلة الجحوية الا اتساع كلمة الغفلة للاشتقاق بين غافل ومتغفل ومتغافل ، على بعد ما بين هذه المشتقات من المعانى والالوان

وهؤلاء الذين وردت أخبارهم فى كتب الادب أرفع فى طبقة « الذوق الفنى » من جحا فى جملة نوادره وأخباره . فليس فيهم من يسف بأضاحيكه الى الصبيانية أو السذاجة السخيفة كما يلاحظ على الكثير من نوادر جحا التى وصلت الينا مضافا اليها نوادر المجموعة التركية ، وهى محيطة بما وضعه الترك وما وضعه غيرهم من عامة الشعوب الشرقية الاسلامية ، وبعضه مما وضعه غير المسلمين من جيران الترك العثمانيين ـ كالارمن ـ ونسبوه الى جحاهم المسمى عندهم باسم « أرتين »

وعلة هذه النقاوة فيما أثبته المؤلفون المتأدبون أنهم اسقطوا البارد الغث من النوادر ، ولم يثبتوا الا مافيه معنى وله طعم فى مذاق الاديب والفنان ، فلاتجد ـ مثلا ـ فى

تلك النوادر ماتحسبه من تأليف الصبيان أو أشباه الصبيان من السذج والجهلاء ، ومافيه دليل على الغفلة او التغافل فهو دليل عليهما بحق فى عرف الذكى اللبيب ، وليس مما يكثر فيه الخلط ليحسب من الغفلة أو التغافل فى عرف الصغار والاغرار

ولو كانت كل النوادر الجحوية من قبيل نوادر المزبد أو الحموى لكانت طرازا من هذا الفن لايعدله طراز فى لغة من اللغات ، ولكانت بابا من أبواب الدراسات الصادقة للفكاهة الفنية والعوارض النفسية التى يعتمد عليها من يجد فى البحث عن شواهد التحليل

فمن كلام الحمدونى حين لاموه على التحامق : « أن حماقة تعولنى خير من عقل أعوله »

ومن أضاحيك المزبد ، أنه هم بتطليق امرأته فذكرته طول الصحبة ، فقال لها : « والله مالك ذنب غيرها »

ومن أضاحيكه أنه سمع عن صيام يوم بمثابة صوم سنة ، فصامه الى الظهر وأفطر ، وقال : « حسبى من الثواب ستة اشهر ، نحسب منها شهر رمضان »

ولو اجتمعت ستمائة نادرة من هذا الطراز لكانت كما اسلفنا ذخيرة لاتعدلها ذخيرة فى آداب العالم ، ولكنها لاتجتمع بطبيعتها ولا مناص من اختلاطها بالسخف والهراء كلما تناقلها العديد الاكبر من عامة الرواة ، وأضافوا اليها مايخترعونه باجتهادهم على حسب مداركهم ، أو مايستدركون به الفوات والنسيان

والكتب التى جمعت هذه النوادر المنتقاة تعد من أمهات كتب الادب الى ايام الدولة العباسية ، ثم يعرض لها الاسفاف والابتذال فيما بعد ذلك من جراء الشيوع والذيوع أو من

جراء الهزال والاضمحلال فى دور المهانة والجمود

واشهر هذه الكتب نثر الدرر للآبى والاغانى لابى الفرج الاصفهانى والمحاضرات لابى القاسم الراغب الاصفهانى ، والبيان والتبيين للجاحظ ، وعيون الاخبار لابن قتيبة واخبار الحمقى والمغفلين لابن الجوزى والعقد الفريد لابن عبد ربه وفوات الوفيات لابن شاكر وذيل زهـر الآداب للحصرى والمستطرف للابشيهى وثمرات الاوراق لابن حجة الحموى ، وحلبة الكميت للنواجى . ثم يلى هذه الطبقة كتاب الفاشوش فى حكم قره قوش لابن مماتى وكتاب مضحك العبوس لابن سودون المجنون ، ويستطرد الاسفاف بعد ذلك الى القرن الرابع عشر للهجرة وفيه ظهرت مجاميع النوادر المنسوبة الى جحا منقولة عن أخلاط الالسن فى كل امة تناقلت هذا الاسم بين الامم الشرقية

الادب الجحوى بعد النهضة الشرقية

وقد ازدهر الادب الجحوى بعد النهضة الشرقية الحديثة ، فظهرت المؤلفات عنه على مناهج شتى ، يقتبس بعضها من نوادره للاغـراض التعليمية ، ويستخدم بعضها هـــذه « الشخصية » لاغراض النقد الاجتماعى على طريقة جحا فى التحامق والحكمة التى تجرى على ألسنة المجانين ، ويعنى بعضها بالاحصاء التاريخى والاستقصاء فى تدوين الروايات والاســـانيد ، ويرجع هذا الازدهار فى الادب الجحوى بعد عصر النهضة الحديثة الى العناية بأحياء الآثار السلفية كما يرجع الى شيوع النقد الاجتماعى بأسلوب الجد والفكاهة

ولقد نبهت النهضة الشرقية أناسا من الاجانب المقيمين

في الشرق ـ كما نبهت الشرقيين ـ الى استكشاف طبائعه وملامحه والوان شعوره وتفكيره ، فكان من هذه الالوان البادية هذا اللون من الفكاهة الشعبية التى تدور حول « شخصية جحا » الساذجة ونوادره التى يتداولها الشعب للسخر منها أو للسخر بها ، وقام اثنان بترجمة نوادر جحا الى الفرنسية باسم « كتاب جحا الساذج » هما البرت عداه والبرت جوسيبوفيشى Albert Ades and A. Josipovici الذى كان من موظفى القصر الملكى وممن حضروا بعض الدروس الاسلامية فى الازهر الشريف ، وكان مولده بالقسطنطينية سنة ١٨٩٢ فكانت لهمعرفةبالتركيةوالعربية واطلاع على نوادر جحا فى مصادرها المختلفة ، وأما صاحبه البرت عداه فقد ولد بالقاهرة ـ سنة ١٨٩٣ ـ وتعلم فى مدارسها وحضر بعض الدراسات الازهرية ، وأمكنه أن يفهم النوادر فى لهجتها الشعبية أو لهجتها المعربة الشبيهة بالشعبية

وقدم الكتاب المترجم الى قراء الفرنسية الاستاذ اوكتاف ميربو Mirbeau بكلمة موجزة كتبها فى أثناء الحرب العالمية (٢٥ أكتوبر سنة ١٩١٦) وقال فيها ان المؤلفين لايشرحان شيئا لان الحياة لاتشرح نفسها وما كان « جحا » الا فلذة من الحياة الشرقية تعيش ولا تحتاج حيث تعيش الى تفسير ، لان النوادر لاتبحث لنا عن غير المألوف أو عن الخوارق والغرائب وانما تعطينا مألوفات الحياة الدارجة بغير بحث ولا انتقاء ، واذا بدا فيها اثر من الغرابة فانما ترجع هذه الغرابة الى اختلاف الجيل مع تشابه الشخصيات وتكرار أمثالها فى كل جيل

وماكاد هذا الكتاب يظهر بالفرنسية حتى ترجم الى

اللغات الاوربية واقبل عليه المثقفون لانه معرفة يستزيدونها كما اقبل عليه عامة القـراء لانه يروقهم بفكاهته ووقائع الحياة الممثلة فيه ، ومن هذه التراجم ترجمة بالانجليزية ظهرت باسم جحا الاحمق Goha the fool أو جحا الغر « البسيط »

وآخر ماظهر من الكتب الاوربية عن جحا كتاب مغامرات بخارى الذى الفه الكاتب الروسى ليونيد سولفييف Leonid Soloviev (سنة ١٩٣٨) وترجمه الى الانجليزية تاتيانا شيبونينا Shebunina فى هذه السنة ، واتخذ المؤلف من شخصية جحا فى هذا الكتاب داعية جوالا يضطرب فى البلاد الاسيوية هربا من ظلم الحكام وكراهة للمقام ، ويمضى هنا وهناك ليشهر بالنظم الحكومية التى ترهق الناس بالضرائب وتلتمس لها اسبابا من الهباء لاتعفى منها المقيم ولا المترحل بين الارض والسماء ، ومثال هذه المعـــاذير التى تنتحل لتحصيل الضرائب أن المكاسين استوقفوا جحا على باب مدينة ليسدد الضرائب عمن ينوى أن يزورهم فيها ، فلما قال للمكاسين انه لايقصدهم للزيارة بل للعمل والتجـارة طالبوه بأضريبة ضعفين : احداهما للعمل المربح والاخرى للزيارة « الضمنية » ... لان من يتجر مع قوم يزورهم بغير مراء

ونخال ان القراء الغربيين أقبلوا على نوادر جحا لانهـا وافقت عندهم نماذج من الشخصيات المضحكة يألفونهـا ويتناقلون حكاياتها الصحيحة أو الموضوعة ، وربما كانت نوادر جحا نفسه قد تسربت الى الغرب بالتنقل والرواية الشفوية والاطلاع على الكتب العربية فى أصولها او ترجمتها ، ولا يبعد أن يكون كثير من هذه النوادر قد انتقل من المغرب

الى أبناء جزيرة مالطة الذين يتحدثون فى لغتهم الممتزجة بالعربية عن شخصية كشخصية جحا تسمى عندهم جهان ، وهو تصحيف يسير كتصحيف كثير من الاسماء العربية التى يتسمى بها أبناء تلك الجزيرة . أما اسم « جوكا » المشهور باللغة الايطالية فلا نخاله من قبيل هذا التصحيف كما خطر لبعضهم ، لان مادة « جوكا » بمعنى المزاح والضحك شائعة فى اللغات الغربية اللاتينية والسكسونية ، ومنهـا كلمة « الجوكندا » لصورة مونا ليزا الخالدة بمعنى « المبتسمة » من عمل ليوناردو دافنشي الفنان الكبير

وقد أشرنا فيما تقدم الى شخصيات فى الغرب تشـبه شخصية « جحا » فى جانب الحكمة تارة وفى جانب الحماقة تارة أخرى ، ولا ننسى فى هذه العجالة أبقى هذه الشخصيات لانها باقية الى يومنا هذا عنوانا لصحيفة سـيارة باسم الـ « البنش » Punch المختزل من اسم Punchinello من بقايا التمثيل الصامت فى العصور الوسطى أو « القره قوز » المعروف عندنا بصندوق الدمى والالاعيب

والتناقض كثير فى رد هذه الكلمة الى أصلها القديم ، فمن الشائع فى الاسانيد الشعبية الايطالية ان الاسم مصحف من اسم مهرج سخيف يسمى بتشيو دانيلو Puccio d'Aniello كان معروفا فى القرون الوسطى ثم اتخذوا اسمه علما على صناعة التهريج

ولاسند لهذه الرواية غير الاشاعة والمشابهة فى اللفظ مع الاختزال والتصحيف ، والارجح ان الاسم مصحف من اسم بنشـيوس بيلات Pontius Pilate أو بيلاطس الذى حدثت فى عهد ولايته محاكمة السيد المسيح . فقـد كانت هذه « الشخصية » محور السخرية والاهانة فى المسرحية

الدينية التى كانت تمثل محاكمة السيد المسيح وتعرض أعداءه فى صورة رمزية يقابلها النظارة بالتهكم والاستهزاء . وقد يكون وصف القرهقوز بالسواد كما يسمى باللغة التركية منظورا فيه الى هذه المسرحية « السوداء » أو مأخوذا من الستار الاسود الذى يحجب الدمى والالاعيب ، وهكذا تتنقل الشخصيات والمناظر بين الشعوب ثم تنعزل فى كل أمة بخصائصها بعد نسيان وسائل الانتقال

وأيا كان مصدر هذا « البنش » فهو باق الى اليوم يصغى الناس الى فكاهاته متفرعة متجدده ، متطورة ، كما نقول بمصطلحات زماننا وقلما يعنيهم ان يتتبعوها الى جذرها القديم

ومن أطوار الشعوب فى تناقل الفنون أو الموضوعات الفنية أن نهضة الشرق نبهت الاوربيين الى تراث الشرقيين القديم وأن عناية الاوربيين نبهت اليه أناسا من الشرقيين الذين يكتبون باللغات الاوربية ، فوضع الاستاذ عسكر نحاس باللغة الفرنسية كتابا سماه « تأملات ابن جحا » يحكى فيه الابن أباه بالحكمة المازحة والدعابة الحكيمة ، ومن أمثاله قوله عن المرأة « انها خلقت فى الرجل الانانية لتحقيق مطالبها » وان « امراة واحدة تبحث عن سيد ، ولكن امرأتين معا تبحثان عن فريسة » وان « الرجل الشرير فى عين المرأة الخائنة هو السمكة التى ترفض الطعم » و « ان المرأة تعذب رجلها عقابا له على أنها شىء لاغنى عنه لديه »

وسينشأ لجحا بعد ابنه هذا حفدة وأبناء حفدة ، ولانظنهم جميعا قالوا ــ بعد ــ كلمتهم الاخيرة باللغة العربية ، أو التركية ، أو بسائر اللغات ، فانهم خالدون بخلود النفس البشرية بين كل قبيل

خلاصة تاريخية

والخلاصة من الناحية التاريخية ـ وهى أقل النواحى ثبوتا واهمية فى هذا المبحث ـ أننا نستطيع ان نتقبل أبا الغصن جحا كما ذكره الميدانى فى أمثاله كأنه شخصية تاريخية لاغرابة فى وجودها ولا داعية للشك فى امكان وقوع النوادر المنسوبة اليها ، فان الذين يشبهون أبا الغصن هذا فى غفلته وسهواته يوجدون فى كل بيئة ، وفى كل زمن ، وان تنوعت المناسبات والاحوال التى تكشف للناس عما طبعوا عليه من الغفلة

ويلحق بأبى الغصن اناس على شاكلته لم يشتهروا مثل اشتهاره ولم يسمع بهم الامراء والولاة كما سمعوا باسمه وخبره ، فيطلق الناس عليهم اسم جحا نبزا او تشبيها أو تغليبا او تفيهقا بالحكاية النادرة التى تدل على علم بأخبار السلف اذا رويت عن مشهور متقدم ولا تدل على شىء من ذلك اذا رويت عن سكان البلد فى ساعتهم الحاضرة ، ويعمل الوضع و « القفش » عملهما أثناء ذلك فيجتمع من النوادر الجحوية ماتصح نسبته الى شخصية قديمة أو حديثة ومالا تصح نسبته الى أحد غير وضاعه ومخترعيه من الرواة والملفقين

ونحن فى عصرنا هذا قد شهدنا نشأة أمثال هذه الشهرة الصحيحة والمخترعة وشهدناتطورها من مبدأها الى مصيرها بعد عشرين أو ثلاثين سنة ، وكان « الفضل » فى ذلك

للصحافة الاسبوعية المضحكة التى كانت تقوم فى أوائل القرن العشرين على « القفش » والملحة المخترعة ، ويعلم الكتاب والقراء والمستمعون أنها تلفيق يعتمد على أصل ضعيف ، وأنها براعة فى صناعة « القفش » يتنافس فيها أولئك الصحفيون ، وهم ولا ريب خلفاء الندماء الذين كانوا يتو'ون هذه الصناعة فى صدر الدولة الاسلامية وما يليه من العصور قبل نشأة الصحافة

رأينا الاديب « ابراهيم الدباغ » يأكل فى مأدبة فلم نلحظ عليه شيئا من النهم الذى اشتهر به بين المتندرين ، وسألنا صاحبا له فقال انها أكلة واحدة أو أكلات قليلة بعد جوع أكسبته هذه الشهرة الباطلة ، وأنت تعلم أنه كثير السخرية والاستهزاء بالادعياء من محترفى الادب والصحافة الذين يتزاحمون على مجالس الاغنياء ، فانتهزوا « فرصة » هذا النهم الموقوت للقصاص والوقيعة وملأوا الصحف الاسبوعية « بالقفشات الدباغية » حتى أصبح « الدبغ » كلمة فى اللغة الدارجة تطلق على النهم ، وقد ظلت هذه الكلمة تحمل معناها المستعار الى يومنا هذا ، وأصبحنا نسمع من يقول عن أحد من الناس أنه « دباغ » وهو لايعرف أصلا لهذه التسمية

وقد حكينا مارأيناه من الشيخ الدباغ وما سمعناه من صديقه صاحب احدى الصحف الاسبوعية التى أولعت « بالقفش » له والتلفيق عليه . فقال : « لاتنخدع به فتدعوه الى طعام ، فانما يكف الرجل يده عن الاكل وهو مشتاق اليه ليدحض كلامنا عنه ويغرر بالحاضرين فيقعون فى الشرك ، ويندمون حيث لاينفع الندم »

فلم ندر — ونحن معاصرون لصاحب الشهرة ومن شهروه بها — أى القولين نصدق وأى القفشات يعتمد على الواقع وأيها يستمد من الفكاهة والخيال

واشتهر رجل آخر فى تلك الآونة بالمبالغة فى الادعاء — أى بالفشر كما يقولون فى اللهجة البلدية — وكان حقا يدعى ويبالغ فى دعواه ، وكان ظريفا يحسن التخلص من المأزق اذا امتحن بمن يتعقبه بالنقد والسخرية ، وكان الى هذا وذاك على يسار يطمع فيه طلاب الاشتراكات للصحف الاسبوعية فى ذلك الحين ، فامتلأت هذه الصحف بدعاويه وبالدعاوى المقيسة عليها مع التوسع والاغراب ، واصبح اسمه كذلك علما على « الفشر » يكاد يلغى هذه الكلمة لولا انها متأصلة فى الاقوال والاقاويل

فلا غرابة فى نشأة النوادر الجحوية سواء صحت نسبتها او لم يصح منها الا القليل

وكل ماجاء فى الكتب العربية من هذه « الجحويات » فلا غرابة فى نشأته ، ولا غرابة فيه من كل وجه الا فى التناقض بين الغفلة والتغافل فى أخبار الرجل الواحد ، ولاسيما الاخبار التى تتحقق صفات صاحبها ويثبت انه من المجانين المسلوبين الذين لايحسنون تدبير « التغافل » ولا تجيء منهم الحكمة الا فلتة غير مقصودة فى القليل من الاحايين

الخوجة نصر الدين التركى

اما جحا التركى المسمى بالخوجة نصر الدين فالمنسوب اليه يملأ مئات الصفحات ، وبين أيدينا كتاب بالتركية مطبوع فى الاستانة بالحرف الدقيق (سنة ١٣٢٨ هجرية) يقع

فى مائتى صفحة وخمس وخمسين ولا يستوعب كل مانسب الى جحا أو الى الخوجة نصر الدين من نوادر الحكمة أو نوادر الغفلة والبلاهة

والامر الذى لاشك فيه أن كثيرا من هذه النوادر وضعت بالتركية ولم تنقل عن العربية ، وانها ترجع الى شخص عاش فى بلاد الترك ولم تكن نشأته على الاقل فى بلاد أخرى

ويدعونا الى الجزم بذلك ان النوادر تشتمل على جناس يوجد فى الالفاظ التركية ولا يوجد فى الفاظ لغة أخرى ، كالجناس بين جل وكل فى نادرة المسامير والخطوط مع لفظ الكاف كما تلفظ الجيم فى بعض الكلمات ، والجناس بين جمع أيوب وكلمة « ايب » بمعنى حبل فى نادرة يحذر فيها الخوجة نصر الدين ابناء بلده من الافراط فى تسمية أبنائهم باسم أيوب ، أو كالجناس فى الاصطلاح على تسمية المطر بالرحمة وقولهم عن نزول المطر أنه رحمة نزلت « رحمة انيور » من عند الله

ويدعونا الى الجزم بتأليف الترك لكثير من هذه النوادر أنها تذكر المدن والاقاليم فى آسيا الصغرى وما جاورها بخصائصها المشهورة الى هذه الايام

ويرجح لدينا أن نصر الدين شخصية تركية غير منقولة عن الامم الاخرى انه نشأ فى آسيا الصغرى حيث تنتشر جماعات الدراويش الدينيين من قبل الاسلام ، وحيث يعهد فى آحاد من هؤلاء الدراويش أن يخلطوا خلط المجاذيب ويفتوا فتوى العلماء والفقهاء ، وأن يلوذوا بمظاهر التخليط احيانا بغية السلامة من بطش الحكام المغيرين على البلاد ، وقد يلوذ بهم عامة الناس ايمانا بكراماتهم وشفاعاتهم ليدفعو

عنهم مظالم الطغاة ، فيحتالون على استرضاء الظالم بالفكاهة أو بالوعظ المقبول أو بالتخليط الذى ينالون به ماطلبوه من الحاكم اذا أضحكوه واستطاعوا فى وقت واحد أن يلمسوا فى نفسه موطن التقوى والخوف من الله وموطن الرضى والسرور

والخوجة نصر الدين مشهور بكراماته وكرامات ضريحه فى مقبره « آق شهر » بعد وفاته بزمن طويل ، يذكر الناس أضاحيكه فيضحكون منها ولكنهم يحيلونها الى حالات أهل الجذب بين عالم الاسرار وعالم العيان ، أو يحيلونها الى حب التقية والاحتيال على الموعظة الحسنة بالاسلوب الذى يؤدى الى مرماه ويعفيه من عقباه

والشك الاكبر انما يعرض لهذه السيرة من أطباق النوادر الكثيرة فيها على اجتماع الخوجة نصر الدين بتيمورلنك أثناء غزوته لبلاد الروم ، والمشهور أن الخوجة نصر الدين توفى سنة ٦٧٣ أو سنة ٦٨٣ هجرية ، فهو قد توفى قبل مولد تيمورلنك بأكثر من نصف قرن ، ولا يعقل أنه رآه وحضر مجالسه الا اذا كانت وفاته حوالى سنة (١٤٠٥ م) التى توفى فيها تيمور

ولا يسهل التوفيق بين هذه الروايات الا على فرض من فرضين : أحدهما خطأ المتأخرين فى تعيين السنة التى توفى فيها الخوجة نصر الدين ، والثانى أن تيمورلنك لقى شيخا آخر على شاكلة الخوجة نصر الدين فتداخلت الروايات وعلقت البقية الباقية منها بالاسم المشهور

وايا كان صواب النسبة فى بعض النوادر التى تحتمل الخلاف فهناك جملة من النوادر لا اختلاف فى وضعها بعد

عصر تيمور وبعد العصر المفروض للخوجة نصر الدين ، وهى النوادر التى وردت فيها الاشارة الى المخترعات الحديثة كالبندقية وساعة الجيب ، أو كالنوادر التى تكذبها وقائع التاريخ العثمانى وتاريخ آسيا الصغرى على الخصوص

▭

ومن الواجب أن نسلم ـ بداءة ـ بوضع العدد الاكبر من النوادر التركية أو نقلها من رواة الامم الاخرى ، لان حصولها كلها من رجل واحد أمر لايسيغه العقل ولا يروى له نظير فى السوابق التاريخية ، فلو أن هذا الرجل عاش ليخلق تلك النوادر وعاش الناس معه ليسجلوها لما اجتمع من أضاحيكه تلك المئات التى تملأ المجلدات ، ولا استطاع أن يأتى بما فيها من النقائض العقلية والخلقية ، فضلا عن نقائض الجغرافية والتاريخ

فوضع العدد الاكبر من النوادر أمر مفروغ منه لايجوزان يحتج به المحتج على بطلانها واختلاقها من أصولها ، ولعل هذه النوادر الموضوعة أصح فى الدلالة على أزمنتها وبيئاتها من وقائع السجلات والارقام

قيل انبين الجليل الرهيبوالمضحك المغرب قيدشعرةأو لمحة عين . ولاشك فى هذه الحقيقة من الوجهة النفسية كما تقدم ، لان الهول يتحول فجأة الى الضحك بطارىء من طوارىء التغيير والتبديل التى تتعاقب فى أيام النصر والهزيمة والقيام والسقوط بين الجبابرة واصحاب الدولات

ولاشك فى هذه الحقيقة ـ ايضا ـ من الوجهة التاريخية

اذا رجعنا الى عصر تيمورلنك واشباهه فى تواريخ المشرق والمغرب ، فليس أحفل بالاضاحيك من عصور التقلب وعصور الشدائد والاهوال

وظاهرة أخرى من الظواهر الناطقة فى النوادر الموضوعة تنبئنا عن زمانها الذى فشت فيه وشاع اختراعها بين جميع الطبقات

فمنذ القرن السادس للهجرة (والثانى عشر للميلاد) هبطت المعرفة من ذروة الكرامة واصبح العارف الاريب من يحتال على رزقه بالمجون والمنادمة والتحامق والتشبه بالجهلاء واصحاب الجدود من ضعاف العقول ، وشاع القول « بحرفة الادب » مغنية عن القول ببؤس العالم الاديب

فى أوائل هذا العهد ظهرت مقامات الحريرى التى يجمع بطلها بين البؤس والبلاغة والبراعة فى الحيلة ، وفيه تواتر النظم فى شكوى الزمان مقرونة بشكوى الادب والعجب من قسمة الارزاق ، وهذه هى الناحية الادبية من تلك الشكايات وتلك الحيل «الانشائية» أو الفنية ، واما الناحية الاجتماعية العامة فآيتها هذه النوادر التى تعد بالمئات ولا تظهر فيها براعة اللبيب الاريب الا فى الاحتيال على أكلة أو فى الاحتيال على دفع المحتالين الطامعين فى قوته الهزيل

وبين قصص جحا قصة عن تقسيم الارزاق يسأل فيها جحا من ندبوه للقسمة هل يريدون قسمة الله أو قسمة العبيد . فلما حكموه فى توزيع الحظوظ بينهم على قسمة الله أعطى هذا مالم يعط ذاك وفاوت بينهم اكبر المفاوتة فى الاقسام ، وما كانت هذه النوادر لتشيع بين العامة من رواة « الجحويات » لو لم تكن لها مصادرها المتواترة من بعيد

على ان النوادر « الطعامية » تنم على وجه خاص عن سذاجة فى الحيلة ترجح نسبتها الى طوائف المحرومين من الجهلاء الذين يتأسون بذوى المعرفة والتقى ولا تسعفهم القدرة على الاختراع ، فغاية جهدهم هذا الذى ابتدعوه وأحبوا تعظيمه وتحقيق الاسوة فيه بنسبته الى العارفين ، وجاءت هذه النوادر الطعامية مجاوبة للمقامات الانشائية وللقصائد المنظومة فى شكوى الزمان والعجب من قسمة الارزاق ، ولم يعرف هذا كله فى عصر من عصور الشرق كما عرف بعد القرن السادس للهجرة ، وبعد ادبار الدولة العباسية ، واجتياح تيمورلنك للعالم الشرقى من تخوم الصين الى شواطىء بلاد الروم

ونودع الآن جحا والجحويات ونحن نحمد للضاحك المضحك ، أنه أعار اسمه عامدا وغير عامد لباب من الدراسة النفسانية والاجتماعية لم يكن ميسورا لنا بغيره ، ولن يبخسه شيئا من الحمد ان يكون على وفاق مع التاريخ أو على افتراق من كل تاريخ

فهرس

صفحة

: شركة فرج
الرئيسى بط
بيكو فى بير
؛ الأعداد تو
تتـولى تسـ

العـــراق : السيد محمود حلمى ـ صاحب المكتبة العصرية ـ ببغداد

اللاذقيـة : السيد نخلة سكاف

مكة المكرمة : السيد هاشم بن على نحاس ـ ص.ب ٩٧

البحـرين : السيد مؤيد احمد المؤيد ـ مكتبة المؤيد ـ البحرين

ساحل الذهب : The Queensway Stores, P.O. Box 400.
Accra, Gold Coast, B.W.A.

نيجـريا : Mr. M.S. Mansour, 110, Victoria Street,
P.O. Box 652, Lagos, Nigeria, W.C.A.

انجـلترا : مكتب توزيع المطبوعات العربية

Arabic Publications Distribution Bureau
Bishopsthorpe Road, Sydenham,
London S.E. 26, England.

فرنسـا : Etablissements Helbaoui,
29, Rue Saint-Augustin,
PARIS-2°, FRANCE.

البـرازيل : Dr. Michel H. Thomé,
Pateo Do Colegio N° 3,
3° Andar — Sala 9
SAO PAULO — BRASIL.



ليس أشوق للقارىء فى موسم الراحة وفصل الحر الشديد من أن يقضى وقته فى قراءة هذا الكتاب المفيد الممتع الذى يتناول الضحك وزعيم الضاحكين المضحكين جحا ..!

ونقول المفيد الممتع ، لان هذا الكتاب ليس للمتعة فقط ، بل هو مجموعة من الثقافة والفكاهة والادب والفلسفة والتاريخ

فقد قدم المؤلف الكبير لهذا الكتاب بفصول عن الكلمة والضحك ، وعن أسباب الضحك ولماذا نضحك ، وعن الانسانية والضحك ، وعن الضحك فى الكتب الدينية . ثم تناول جحا كشخصية ضاحكة عالمية ، وروى طائفة من نوادره الطريفة ، واستخلص منها عبرة الضحك ومأتاه . كما تحدث عن آراء فلاسفة الضحك ، فهو ينقلك من العلم الى الادب الى الفكاهة الى الفلسفة ثم الى ... المرحة – حياة جحا التى أصبحت عنوانا ...

فأنت تقرأ بين رياضتك النفسية ... الذهنية فى هذا الكتاب أجمل ماتحتاج ... ثقافة عن الضحك وزعيم الضاحكين ... الذى أبى الا أن يعيش خالدا بين الناس ... الميل الى الضحك والفكاهة فى نفوس